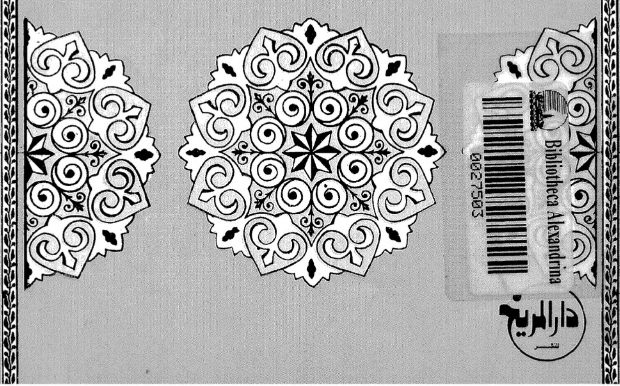
من أسرار
التعبير
فى القرآن

الفاصلة القرآنية

تأليف

د. عبد الفتاح لاشين
جامعة الأزهر وأستاذ مشارك بجامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية



الفاصلة القرآنية

من أسرار
التعبير
في القرآن

الفاصلة القرآنية

تأليف
د. عبد الفتاح لاشين
جامعة الأزهر وأستاذ مشارك بجامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية



الرياض - ص.ب: ١٠٧٢٠

طبعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ الرياض

دار المريخ للنشر

قائمة المحتويات

صفحه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، أنزل القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان .

أما بعد : فهذا كتاب (من أسرار التعبير فى القرآن) ، وقد خصصناه بالفاصلة القرآنية ، ومن الباحثين من ينظر إلى الفاصلة – أو السجع – فى الكلام ، على أنه مناسبة لفظية مرغوبة ، ومطلوبة فى اللغة العربية ، فهى تريح القارئ من البهر ، وترشده إلى تلوين الصورة ، وإجادة الوقف ، وتزيد من روعة التلاوة ، بما تخلع عليها من إيقاع محبب ، وتمد القراء بألوان من التنغيم المؤثر والتطريب الأخاذ .

وهذا إن صدق فى سجع الكُتَّاب ، فلا يصدق على الفاصلة فى القرآن ، فعلينا ألا ننظر إلى بلاغة الفاصلة فى القرآن هذه النظرة المحدودة ، التى لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ ، فإن هذه الصورة اللفظية الحسية – مع جمالها – لا يصح أن تصرفنا ، ولا تحجب عن ذهننا ما استتر فيها من بدائع الأسرار ، ودقائق الأغراض .

فالفاصلة فى القرآن الكريم لها مزية هامة،ترتبط بما قبلها من الكلام ، بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا ، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدا لها ، بحيث إذا حذفت لاختـل المعنى فى الآية ، ولو سكت عنها القارئ لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع ، والذوق السليم .

فلا عجب إذا سمعنا أن بعض الأعراب سمع قارئا يقرأ: ﴿ والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهما جَزاءً بما كسَبَا نَكَالاً من الله﴾وختمها بقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ » ، فقال الأعرابى ، ما هذا فصيح؟ فقيل له : ليست التلاوة كذلك ، وإنما هى : ﴿ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾[المائدة ٣٨] ، فقال الأعرابى : بخٍ بخٍ ، عَزَّ ، فحكَمَ ، فَقَطع .

فليست فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ وأوزان ، بل لها علاقة وثيقة بما قبلها من بقية الآية ، ولهذا نجدها تأتى مستقرة فى أماكنها ، مطمئنة فى مواضعها غير قلقة ولا نافرة .

وقد طرقنا فى هذا البحث ما يربو على مائـة فاصلة ، بينا فيها الصلة البينة بينها وبين ما قبلها من الآية ، ولهذا عندما جاءت كانت مستقرة فى مكانها ، مطمئنة فى موضعها ، غير قلقة ولا نافرة ، ولو استبدل بها غيرها لتبدل المعنى ، وفسد الغرض ، مما جعل العلماء يقسمون تلك الفواصل – على أساس ارتباطها بما قبلها – إلى التمكين ، أو التصدير ، أو التوشيح ، أو الإيغال ، وكلها تضرب بسبب أو بآخر إلى الحكمة فى وجودها ، والسبب فى ختام الآية بها .

والله أسأل أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه ، ويهدينا سواء السبيل ، فهو نعم المولى ، ونعم النصير . . .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن حين نزوله :

القرآن الكريم نزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى بضع وعشرين سنة ، قضى منها عشرا فى مكة ، والباقى فى المدينة ، فكان من القرآن الكريم سور مكية ، وأكثرها قصار ، وعددها ست وثمانون ، وأخرى مدنية ، وعدتها ثمان وعشرون [1] . • •

والسور المكية نزلت فى بدء الدعوة ، ولما كانت جماعة المشركين متعصبين لأديانهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وفى أخلاقهم جفوة ، وفى ألسنتهم خصومة ، اتجهت السور المكية فى خطابهم إلى الوجدان والمشاعر ، تقسو عليهم بالزجر والتسفيه ، والوعيد والتهديد ، والترغيب والترهيب ، والتبشير والإنذار ، فى أسلوب شديد الأسر ، حاد قوى ، متتابع السجعات الرنانة ، والفواصل المدوية القصيرة [2] .

وليس معنى هذا أن القرآن المدنى تخلو آياته من السجع ، لكن الغالب عليها الاسترسال ، والهدوء ، وطول النفس ، لأنها تخاطب عقول قوم آمنوا بها ، واطمأنوا إلى هدايتها ، فهى مسوقة لتقرير العبادات ، وبيان الأحكام ، وسن القوانين ، وتنظيم المجتمع ، وتهذيب الطبائع والأخلاق ، فإن لم تنته بالسجعات ، انتهت بفواصل متقاربة فى حروف الروى .

---

(١) حصر السور المكية والمدنية فيها خلاف ، وهذا القول هو أحدها .

(٢) البديع فى ضوء أساليب القرآن ١٢٤ .

وأكثر ما تكون الفواصل تماثلا فى حروف الروى فى الآيات المكية ، كما نرى ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۞ ﴾ [النجم ١ – ٧] .

وقد تكون الفواصل متقاربة ، كما فى قوله تعالى :

﴿ حم ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۞ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۞ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۞ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ ﴾

[الدخان ١ – ٦] .

فالميم والنون حرفان متقاربان فى المخرج اللفظى ، وأكثر ما تكون الفواصل تقاربا فى الآيات المدنية .

فالفقر فى الآيات السابقة رقيقة النغم ، خفيفة الروح ، موجزة اللفظ ، وافية المعنى ، فيها وزن ، ورنين .

وقد جاء القرآن الكريم بأسهل موقف ، وأعذب مقطع ، وكثر فيه ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون ، فيمكّن القارئ الذواق من التطريب ، وهذا يتفق مع ما كان يميل إليه العرب قديما ، قال سيبويه (١) « إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا » .

(١) الكتاب جـ ٢٩٨/٢ .

والسور التي جاءت فواصلها كلها على حرف واحد ليست قليلة .

فمن ذلك سورة الكهف ، والفتح ، والإنسان ، والأعلى ، والشمس ، والليل ، فإن فواصلها كلها جاءت على حرف الألف .

ومن ذلك سور : القمر ، والقدر ، والكوثر ، فإن فواصلها كلها جاءت على حرف الراء .

وأما سورة الإسراء ، والفرقان ، والأحزاب ، فإن فواصلها كلها ، وإن جاءت على الألف ، فإن كل واحدة منها قد جاءت فيها فاصلة على غير الألف ، وهى الراء فى (الإسراء) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّه هُو السَّمِيعُ البَصيرُ ﴾ واللام فى (الفرقان ١٧) فى قوله تعالى : ﴿ أمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبيلَ ﴾ ، واللام فى (الأحزاب ٤) فى قوله تعالى : ﴿ والله يُقُول الحقَّ وهُو يَهْدِى السَّبيلَ ﴾ .

ومن ذلك سورة المنافقين ، فإن فواصلها كلها جاءت على حرف النون ، كذلك سورة الفيل فإن فواصلها كلها جاءت على حرف اللام ، وكذلك سورة الناس ، فإن فواصلها كلها جاءت على حرف السين .

وقد كثر مجىء الفواصل على بعض الأحرف كالنون ، وقل مجيئها على بعض الأحرف كالشين .

وقد يكون القرآن خاليا من المقاطع فى بعض الآيات ، لكنه لا ينزل فى وزنه ونغمه عن مستواه الأعلى ، ومن ذلك كثير من آيات الأحكام ، مثل آية المواريث :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ

ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا
ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ . . . الآية ﴾

[النساء ١١ – ١٢]

فهاتان الآيتان مع أنهما يعدان من الآيات الطوال إذ يبلغ حجمهما فى المصحف أكثر من اثنى عشر سطرا ، ومع ذلك فليس فيهما إلا مقطعين لايعدان فواصل متقاربة ولا متماثلة ، وإنما هو كلام الله المنثور ، فالنغم متآخ ، والمعانى متلاقية ، والألفاظ متجانسة ، مع بيان واضح للأحكام ، وتفصيل كامل للتشريع ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم ينزل بمرتبة الكلام كثرة ذكر الأرقام ، بل بقى على صفة العلو ، وظل فى الطبقة العليا من الكلام ، مع ما فى الآية من كثير من أرقام الحساب ، والكسور التى تدعو إلى الجفاء فى العبارة .

الفاصلة والسجع :

تقع الفاصلة عند الاستراحة فى الخطاب ، لتحسين الكلام بها ،وهى الطريقة التى يباين بها القرآن بقية الكلام ، وسميت فواصلا ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، حيث إن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها ، ولعل هذا أخذا من قوله تعالى : ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود – ١]

ولا يجوز تسميتها قوافى إجماعا من العلماء ، لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر ، وجب سلب القافية عنه أيضا لأنها منه ، وكما يمتنع استعمال

القافية فيه ، يمتنع استعمال الفاصلة فى الشعر ، إذ أنها صفة لكتاب الله تعالى لا تتعداه .

فالفاصلة: تكون مقاطع الكلام فيها متقاربة فى الحروف كالنون والميم فى قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [الفاتحة ٢ – ٤]

أما السجع : فتكون مقاطع الكلام فيه متحدة فى الحروف .

وعلى هذا فالفواصل أعم من السجع ، فهى إما سجع تتحد فيه حروف المقاطع ، أو مجرد فواصل تتقارب فيها حروف المقاطع . وهذا هو ما اتجه إليه ابن سنان الخفاجى[1] ، حيث يقول :

« الفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعا ، وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع ، وضرب لا يكون سجعا ، وهو ما تقاربت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل .

« ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين – أعنى المتماثل والمتقارب – من أن يأتى طوعا سهلا وتابعا للمعانى ، وبالضد من ذلك ، حتى يكون متكلَّفا يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثانى فهو مذموم مرفوض » .

فابن سنان يرى – كما يدل عليه النص – أنه ليس كل فاصلة تكون الألفاظ فيها تابعة للمعنى ، فيكون الحُسْن واقعا ، وليس كل سجع تكون

---

(١) سر الفصاحة ٦٥ وما بعدها .

المعانى فيه تابعة للألفاظ فيكون التكلف حاصلا ، بل التعميم فى الحُسْن فى الفاصلة ، والقُبْح فى السجع ، هو الخطأ – إلا أن فواصل القرآن كلها من البليغ ، وألفاظه تبع لمعانيه .

ثم أورد ابن سنان شواهد من الفواصل المتماثلة والمتقاربة فى القرآن ، فقال : فمن المتماثلة قوله تعالى :

﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝﴾ [الطور ١ – ٤]

وقوله تعالى :

﴿طه ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه ١ – ٥]

ويستمر فى ضرب الشواهد من القرآن ، ثم يقول معقبا عليها :

« وهذا جائز أن يسمى سجعا ، لأن فيه معنى السجع ، ولا مانع من الشرع يمنع من ذلك » .

ثم يستشهد على المتقارب بقوله تعالى :

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝﴾ [ق ١ ، ٢]

وهذا لا يسمى سجعا ، لأن السجع ما كانت حروفه متماثلة .

فالمقاطع ليست متحدة فى الحروف ، بل بينها تقارب فى المخــــرج ، ف[الدال والباء] مخارجها متقاربة ، ولا نفرة بينهما فى النطق ، وكذلك حرف المد قبل الحرف الأخير من كل مقطع ، وهو [الياء والواو[1]] ، ولهذا كان التقارب بيِّناً ، يجعل نسق القول واحدا ، وإن لمْ تتحد المقاطع ، وهذا مما جعل كلام الله تعالى فوق كل مثال .

فى القرآن سجع أم فواصل ؟

المسلَّم به أن القرآن الكريم فيه فواصل ، قد تتحد فيها حروف المقاطع كما فى قوله تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝ ﴾ [القمر ١ – ٥]

وجميع هذه السورة على هذا الازدواج ، فهل يسمى هذا – وأمثاله كثير فى القرآن – سجعا ؟

اختلاف وجهة نظر العلماء :

اختلفت آراء علماء البلاغة فى القديم ، فيما جاء فى كتاب الله تعالى من الفواصل ، هل يسمى ذلك سجعا ؟ .

---

(١) كما فى الفاصلة « ومالها من فروج » (ق ٦) .

رأى الرمانى :

رأى الرمانى ، أن الفواصل : حروف متشاكلة فى المقاطع ، توجب حسن الإفهام فى المعانى ، وَوَصَف الفواصل بالبلاغة ، والأسجاع بالعيب ، وعلل ذلك بقوله : (١)

« إن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، إذ الغرض إنما هو الإبانة عن المعانى التى إليها الحاجة ماسة ، فإذا كانت المشاكلة موصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب وَلُكْنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصَّع تاجا ثم ألبسه زنجيا ساقطا ، ونظم قلادة ثم ألبسها كلبا ، وقُبحُ ذلك وعيْبُه بَيِّنٌ لمن له أدنى فهم » .

ثم يمثل للسجع بقول الكهان ، فيقول :

« فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهان : « والأرض والسماء ، والغراب الواقعة بنقعاء ، لقد نفر المجد إلى العشراء » .

وهكذا نجد الرمانى يفرق بين الفاصلة والسجع فى الجواز ، فالفاصلة بلاغة ،والسجع عيب ، والفواصل : ألفاظها تتبع المعانى ، والسجع : اتحدت حروفه دون نظر إلى المعنى ، والقرآن فى نظره يعلو أن يكون سجعا .

ولعل الحكمة فى نظرته تلك إلى السجع،أن ذلك كان مبنيا على أساس ما أمامه من سجع الكهان ، وما فيه من الغرابة والقبح الذى لا يقبل

---

(١) إعجاز القرآن للرمانى ٩٧ .

جدالا – وإلا فمن السجع مما يزيد المعنى قوة ، وتكون ألفاظه تابعة لمعانيه ، ويسهل قبوله ، ويجيء عاملا من عوامل التأكيد .

رأى الباقلانى :

وافق الباقلانىُّ الرمانىَّ فى إنكار السجع فى القرآن الكريم ، ووصف ما ادعاه الآخرون بوجوده فى القرآن ، وما ساقوه من أدلة بأنها وهم ، فقال[1] :

« والذين يقدرون بأنه سجع هو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع ، وإن لم يكن سجعا ، لأن ما يكون من الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى » .

فالباقلانى ، ومن تبعه من الأشاعرة ، لا يذكرون السجع إلا من خلال هذه الصورة القائمة من صور البيان ، وهى أن يكون اللفظ فيها مقدما على المعنى .

والذى دفع الباقلانى إلى هذا هو تشبيه السجع بالشعر ، فالشعر تقصد فيه القوافى المتحدة فى الألفاظ ، ثم يُكيَّفُ المعنى على الألفاظ لتستقيم القافية ، ولما كان الشعر منفيا عن القرآن ، فكذلك السجع الذى يتبع منهجه ، وتجيء المعانى فيه تابعة للألفاظ ، وأن الله تعالى عندما استنكر أن يكون القرآن قول شاعر ، أو كاهن فى قوله تعالى :

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ٥٨ .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾

[الحاقة ٤٠ – ٤٢]

فقد أدخل السجع فى النفى ، وهو السجع الذى يكون المقصد الأول فيه اللفظ .

أبو هلال العسكرى :

لكننا نجد اتجاها آخر من العلماء ، يثبت السجع فى القرآن ، وإن كان السجع فى القرآن أعلى مما يستطيع البشر أن يزاولوه .

ومن هؤلاء أبو هلال العسكرى ، فقد قال : [1]

« وجميع ما فى القرآن مما يجرى من التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى ، وصفاء اللفظ ، وتضمن الحلاوة ، لما يجرى مجراه من كلام الخلق ، ألا ترى قوله تعالى :

﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝ ﴾

[العاديات ١ – ٥]

قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هـذا المجرى من مثـل قول الكاهن : « والسماء والأرض ، والقـرض والفـرض ، والغمر والبرض » ؟ ، ومثل هذا من السجع المذموم ، لما فيه من التكلف والتعسف .

---

(١) الصناعتين ٢٦٦ .

ولهذا قال النبى – صلى الله عليه وسلم – لرجل قال : « أَنَدِىَ من لا شرب ولا أكلْ ، ولا صاح فاستهلْ ، فمثل ذلك دمه يُطَلْ » أسجعاً كسجع الكهان ؟ لأن التكلف فى سجعهم فاش ، ولو كرهه – عليه السلام – لكونه سجعا لقال أسجعا ؟، ثم سكت .

وكيف يذمه ، ويكرهه ، وإذا سلم من التكلف ، وبرئ من التعسف ، لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه – عليه السلام ؟ » .

فأبو هلال يخالف الرمانى والباقلانى فى أن السجع كله مذموم ، بل إن منه المذموم الذى يظهر فيه التكلف ، ومنه ما هو حسن الموقع ، ولا مانع من أن يقع فى القرآن ، ولكنه فى أعلى مراتب الكلام ، بحيث لا يمكن أن يجاريه أو يدانيه أحد .

ابن سنان :

وابن سنان يسمى ما فى القرآن الكريم من المقاطع المتماثلة سجعا ، إلا إنه يعده من السمو والعلو بحيث لا يستطيع أحد من البشر أن يسمو سموه ، ويسوق نصوصا من القرآن كثيرة منها :

﴿ طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ④ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⑤ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ⑥ ﴾ [طه ١ – ٦]

ويتكلم ابن سنان عن البواعث التى دفعت المفكرين وجود السجع فى

القرآن ، فيحمد لهم تلك البواعث ، مع الثبات على مخالفتهم ، فيقول[1] :

« وأظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصلا ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا ، رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة ، وغيرهم ، وهذا غرض فى التسمية قريب .

فأما الحقيقة فما ذكرناه ، لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره فى كونه مسجوعا ، وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضا ، وصوتا ، وحروفا ، وكلاما ، وعربيا ، ومؤلفا ، وهذا مما لا يخفى ، فيحتاج إلى زيادة فى البيان ، ولا فرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع » .

ثم يقول ردا على معترض :

« فإذا قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود ، فهلا ورد القرآن كله مسجوعا ، وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعا وبعضه غير مسجوع ؟ .

قيل : إن القرآن أنزل بلغة العرب ، وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح فى كلامهم لا يكون كله مسجوعا ، لما فى ذلك من أمارات التكلف ، والاستكراه والتصنع ، لاسيما فيما يطول من الكلام ، فلم يرد مسجوعا جَرْياً به على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم ، ولم يَخْل من

(١) سر الفصاحة ١٦٦ .

السجع ، لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة التى قدمناها ، وعليها ورد فى فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون عاليا فى الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها ، فهذا هو السبب فى ورود القرآن مسجوعا وغير مسجوع » .

فتصريف القول فى القرآن ، فيأتى بالسجع أحيانا ، أو بالفواصل المتقاربة حروفها فى المقاطع أحيانا ، أو إطلاق الألفاظ فى القرآن من غير مقاطع ، مع وجود ذلك كله فى أعلى درجات البلاغة – كان لحكمة سامية ، وسر لطيف – وهو التصريف فى القول – يقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ .

[الإسراء ٨٩]

رأى ابن الأثير :

استنكر ابن الأثير قول من يذمون السجع ، كما استنكر القول من العلماء الذى لا يسمون ما فى القرآن من اتحاد المقاطع سجعا ، يقول : [١]

« وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجها ، فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم ، فإنه قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر ، وغيرهما » .

فالمثبتون للسجع فى القرآن – أبوهلال ، ابن سنان ، ابن الأثير – يعتمدون على ما يجدونه فيه من اتحاد فى المقاطع ، ومع ذلك فهو فى القرآن أعلى من كلام البشر ، وليس على شاكلته كلام آخر .

---

(١) المثل السائر جـ ٣٣٣/١ وما بعدها .

وعلى ضوء ما تقدم نرى أن هناك خلافا بين الرمانى ، والباقلانى ، ومن تبعهم من جهة ، وبين أبى هلال ، وابن سنان ، وابن الأثير ، ومن تبعهم فى وجهة نظرهم من جهة أخرى ، هؤلاء يقولون فى السجع : إنه اتحدت فيه ألفاظ المقاطع ، سواء أكان المعنى هو المقصود ، وجاء الاتحاد تحسينا للقول ، أم كان المقصد هو اللفظ واتحاد ألفاظ المقاطع هو المقصود ، وفى الأول يكون السجع محمودا ، وفى الثانى لا يكون لائقا بالقرآن الكريم .

أما الرمانى والباقلانى ، وبقية الأشاعرة ، فإنهم لا يرون السجع إلا فى هذه الصورة القائمة من صور البيان التى فيها يكون اللفظ مقدما على المعنى .

فإذن هذا الاختلاف قائم على الاختلاف فى الاصطلاح على تسمية السجع ، فمن يفسره بأنه : الاتحاد فى حروف المقاطع من غير أن يكون المعنى تابعا للفظ يحكم بأن القرآن الكريم فيه سجع ، لكنه فوق قدرة البشر ، ومن يقول : بأن السجع كالشعر يكون المعنى فيه تابعا لأوزان القافية يكون القرآن منزها عنه .

وبذلك يكون الطرفان على اتفاق تام على تقديس القرآن ، وتنزيهه عن أن يكون مشابها لكلام البشر ، وإن كان من جنسه وحروفه .

الفواصل تبنى على الوقف :

الفواصل موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف والبناء على السكون ، كقولهم : « ما أبعد ما فاتْ ، وما أقرب ما هو آتْ » ، فلو اعتبرت الحركة لفات السجع ، لأن التاء من [فاتَ] مفتوحة ، ومن

[آتٍ] مكسورة منونة ، وهذا غير جائز فى عرف القوافى ، ولا يتحقق فيه التزاوج بين الفواصل[1] .

ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور ، وبالعكس ، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّا خلقْناهم من طِينٍ لازبٍ ﴾ – بجر [لازبٍ] ، مع تقدم قوله : ﴿ ولَهُم عذابٌ واصِبٌ ﴾ و ﴿ شهابٌ ثاقبٌ ﴾ – برفع [واصبٌ وثاقبٌ] ، والآيات على ترتيب المصحف هكذا :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١ ﴾ [الصافات ٦ – ١١]

وكذلك قوله تعالى فى قصة نوح – عليه السلام – :

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ ﴾ [القمر ١١ ، ١٢]

بجر [منهمرٍ] وبناء [قُدِر] على الفتح .

وكذلك قوله تعالى :

---

(١) البديع فى ضوء أساليب القرآن ١٤٢ .

﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾

[الرعد ١١ ، ١٢]

بجر [والٍ] ، ونصب [الثقالَ] .

ويقول صاحب البرهان : « وكلام السكاكي[1] يشعر بأنه يشترط في السجع الموافقة في الإعراب لما قبله على تقدير عدم الوقوف عليه ، كما يشترط ذلك في الشعر » .

ثم يضعف ما ذهب إليه السكاكي ، فيقول :

« والصواب أن ذلك ليس بشرط ، لما سبق ، ولاشك أن كلمة [الأسجاع] موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفا عليها ، لأن الغرض المجانسة بين القرائن والمزاوجة ولا يتم ذلك إلا بالوقف ، ولو وصلت لم يكن بد من إجراء كل القرائن على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فعطَّلتْ عملَ الساجع ، وفوَّتَ غرضهم .

وإذا رأيتهم يُخرجون الكلم عن أوضاعها لغرض الازدواج ، فيقولون : آتيك بالغَدَايَا والعَشَايَا ، مع أن فيه ارتكابا لما يخالف اللغة ، فما ظنك بهم في ذلك ؟ »[2] .

---

(١) المفتاح ٢٠٣ ، قال السكاكي : « ومن جهات الحسن الأسجاع ، وهي في النثر كما القوافي في الشعر » .

(٢) البرهان جـ ٧١/١ ، (الغدو) جمع ، مثل : الغَدوات والغُدِيّ ، وقالوا : إني لآتيك بالغَدايا والعَشَايا ، والغداة لا تجمع على الغدايا ، ولكنهم كسَّروه على ذلك ليطابقوا بين لفظه ولفظ العشايا ، فإذا أفردوه لم يكسِّروه ، (اللسان مادة غدا) .

تقسيم الفواصل :

قسم البلاغيون[1] الفواصل إلى : متواز ، ومُطَرَّف ، ومتوازن .

فالمتوازى : وهو أشرفها – أن تتفق الكلمتان فى الوزن وحرف الروى ، كقوله تعالى فى نعيم أهـــل الجنة : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ [الغاشية ١٣ ، ١٤] ، وقوله تعالى فى المسيح – عليه السلام – :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾
[آل عمران ٤٨ ، ٤٩]

والمطرف : أن تتفق الكلمتان فى حرف الروى – لا فى الوزن ، كقوله تعالى حكاية عن نوح – عليه السلام – يخاطب قومه :

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح ١٢ ، ١٣]

والمتوازن : أن يراعى فى مقاطع الكلام الوزن فقط ، كقوله تعالى فى نعيم أهل الجنة : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾
[الغاشية ١٥ ، ١٦]

وقوله تعالى يخاطب الرسول – عليه السلام – :

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ [المعارج ٥ – ٩]

وقوله تعالى فى قصة موسى وهارون :

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾
[الصافات ١١٧ ، ١١٨]

---

(١) البرهان جـ ٧٥/١ .

فلفظ [الكتاب] ، و [الصراط] متوازنان ، ولفظ [المســـتبين ، والمستقيم] متوزانان .

وقد تكرر المتوازن فى سورة [الشورى ١٦ - ٢٢] فى سبع آيات متواصلة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ... الآيات ﴾

فجميع فواصلها بين [شَدِيدٌ ، قَرِيبٌ ، بَعيدٍ ، عَزِيزُ ، نصيبٍ ، أليمٌ ، كبيرُ] على هذا الترتيب ، وهو فى القرآن كثير ، وبخاصة فى قصار المفصل .

* * *

وأحسن السجع ما تساوت قرائنه ليكون شبيها بالشعر ، فإن أبياته متساوية ، كقوله تعالى فى نعيم أصحاب اليمين : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة ٢٨ - ٣٠]

ثم ما طالت قرينته الثانية ، كقوله تعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ ﴾

[النجم ١ ، ٢]

، أو الثالثة ، كقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة ٣٠ - ٣٢]

وقد علل العلماء عدم حسن طول القرينة الثانية عن الأولى بتعليل نفسى ، فزاوجو بين علم النفس والبلاغة ، يقول صاحب عروس الأفراح[1] .

(١) عروس الأفراح جـ ٤٤٩/٤ .

« إن السَّمْع أَلِف الانتهاء إلى غاية فى نهاية السجعة الأولى ، فإذا زيد عليها ، ثقل عليها الزائد ، لأنه يكون عند وصولها إلى مقدار الأولى ، كمن يتوقع الظفر بمقصوده من فهم المراد له ، ولم يجده أمامه » .

وقال آخر :[1] « واضح أن العقل يقدر القوة اللازمة لإدراك المقاطع ، فإذا زاد المتكلم أو نقص ، أو غيَّر فى مقطع عن مألوف هيئته ، تعثرت به أذن السامع ، وشق عليها ذلك ، كمن يسير فى سهل مستو على غير انتباه ، فإن أقل خلل فى الطريق من ارتفاع أو انخفاض ، أو اعتراض حجر - بخلاف ما هو مقرر فى ذهنه - يوجب عثاره وتأذِّيه » .

وقال ثالث[2] « دقات الساعة المتوالية ، حين تبدأ أو تتكرر الدقات يعيها السامع ، ولما كان تكرار الدقات يتبع نظاما معينا ، فإن السامع يتوقع أن تتكرر الدقات بذلك النظام نفسه فى المستقبل ، وقد يكون هذا التوقع أو الانتظار شعوريا ، وقد يحتل شبه الشعور .

دليل ذلك أنه إذا توقفت الساعة عن العمل كان توقفها سببا فى لفت نظرك إليها ، والبحث عن أسباب توقفها ، ومعنى ذلك أن حدوث الأشياء بنظام مخالف لما نتوقع يحدث فى أنفسنا شيئا من الدهشة والاضطراب ، وهذا هو عينه التعليل النفسانى لما يحدث من ارتياح عند الاستماع إلى الموسيقى الصوتية المنسجمة ، أو إلى الشعر الموزون ، وإلى النثر المسجوع ، أو الخاضع لنظام معين فى توالى الكلمات ، وسرد العبارات » .

* * *

(١) فلسفة البلاغة ١٤٢ .

(٢) دراسة فى علم النفس الأدبى ٨٦ .

والفاصلة إما أنِ تكون قصيرة كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ ﴾ [المرسلات ١ ، ٢]

أو طويلة ، كقوله تعالى فى غزوة بدر :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

[الأنفال : ٤٣ ، ٤٤]

أو مُتوسطة ، كقوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر ١ ، ٢]

خروج نظم الآية عن المألوف بسبب الفاصلة :

الفاصلة لها أثر فى نسق الكلام ، واعتدال المقاطع ،وتجعل موقعه حسنا فى النفوس ، وتؤثر فيه تأثيرا لا ينكر ، وتناسب الأطراف ، وتماثل الحروف ، مما يريح السامع ، ويجذب انتباهه .

ولهذا الأثر الفعال الذى تتركه الفاصلة فى النفوس ، قد يعدل نظم الكلام فى القرآن وتخرج الآية عن المعتاد والمألوف بسببها ، ومن هذا التعديل :

١ – زيادة حرف [الألف ، وهاء السكت ، ولَعَلّ] لأجل الفاصلة[1] :

---

(١) البرهان جـ ٦١/١ .

فزيادة الألف كقوله تعالى فى وصف حال المسلمين فى غزوة الأحزاب : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب ١٠ ، ١١]

فقد ألحقت [الألف] بـ [الظنون] ، لأن مقاطع فواصل هذه السُّورة ألفات منقلبة عن تنوين فى الوقف ، فزيدت على النون ألف ، لتتساوى المقاطع ، وتتناسب نهايات الفواصل .

ومثله من السورة نفسها قوله تعالى فى عقاب الكفار :

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الاحزاب ٦٦ ، ٦٧]

وزيادة هاء السكت الملحقة بياء المتكلم ، مثل : [ماهِيَهْ] فى قوله تعالى فى وصف جهنم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ [القارعة ٩ — ١١] .

ومثلها الهاء الملحقة بياء المتكلم فى [كتابيهْ وحسابيهْ] فى قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة ١٩ — ٢١]

فهذه [الهاء] التى زيدت فى [ماهيهْ] فى آية القارعة ، وفى [كتابيهْ ، وحسابيهْ] فى آيات الحاقة ، عدَّلت مقاطع الفواصل فى سورتى

القارعة والحاقة ، وكان للحاقها تأثير عظيم فى الفصاحة ، ووقع لطيف على مجرى السمع .

وقد غاب وجه هذا الحسن ، وروعة هذه الهاء ، على بعض العلماء ، فعابوها ، والعيب فيهم :

والنجمُ تستْصغرُ الأبصارُ رُؤْيَتَهُ
والذنْبُ للطَّرْفِ، لاللِنَّجم فى الصِّغَرِ

« أنشد رجل من أهل المدينة أبا عمرو بن العلاء قول ابن قيس بن الرقيات :

إنَّ الحوادثَ بالمدينة قَدْ أوجَعْننِى ، وقَرَعْنَ مرْوَتيَهْ

فانتهره أبو عمرو ، وقال : مالنا ولهذا الشعر الرّخو ، إن هذه الهاء لم توجد فى شىء من الكلام إلا أرْخَتْه .

فقال له المدينى : قاتلك الله ! ، ما أجهلك بكلام العرب ، قال الله عز وجل : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾
[الحاقة ٢٨ ، ٢٩]

وقال : ﴿ لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة ٢٥ ، ٢٦]

فانكسر أبوُ عمرو انكساراً شديداً .

وأنشد ابن قيس الرقيات هذا الشعر لعبد الملك بن مروان ، فقال : أحسنت يا قيس ، لولا أنك خَنَّثْتَ قافيته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما عدوت قول الله عز وجل فى كتابه : ﴿ ما أغْنَى عَنِّى ماليَهْ ، هلَك عَنِّى سُلطَانِيَهْ ﴾ فقال عبد الملك : « أنت فى هذا أشعرُ منك فى شعرك »(١)

(١) الخصائص جـ ٢٩٣/٣ ، المزهر جـ ٢٣٣/٢ .

وأما زيادة [لعل] فكقوله تعالى : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[يوسف ٤٦]

فقد كرر [لعل] مراعاة لفواصل الآيات ، إذ لو جاء على الأصل لقال : [لعلى أرجع إلى الناس فيعلموا] بحذف [النون] على الجواب .

٢ – تأنيث ما أصله أن يذكر للفاصلة : (١)

هذا معنى يكاد يكون واحدا ، إلا أن التعبير القرآنى سلك فيه مسلكا فريدا مراعاة لتحسين المقاطع ، ومحافظة على وجود الفاصلة ، يقول تعالى فى وصف المشركين حين فرارهم من الدعوة :

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

[المدثر ٥٠ – ٥٦]

ويقول فى سورة الإنسان : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

[الإنسان ٢٩ ، ٣٠]

(١) انظر فى هذا البرهان جـ ٦٥/١ ، درة التنزيل ٥٠٧ .

فلماذا اختلفت الفاصلة فى هاتين السورتين ﴿ إنَّ هذه تَذْكِرة ، فمن شَاء اتَّخَذ إلى ربِّه سبيلاً ﴾ وقوله : ﴿ كلاَّ إنَّها تَذْكِرة ، فمن شاء ذَكَرَهْ ﴾ مع أن معناهما واحد ؟

ولماذا كانت [الهاء] فى [ذَكَرَهْ] ، وهى مذكر ، وتعود على مؤنث ، وهى [تَذْكِرَة] ؟

« اختلفت الفواصـــل فى هذين الموضعين لملاءمة الفواصـــل فى كل من الســـورتين ، فلما كانت الآيات فى ســـورة المدثر فواصلها [هاء] كما فى [مستَنْفَرَهْ ، قَسْورهْ ، مُنَشَّرَهْ ، تَذْكِرهْ ، ذَكَرَهْ] ، عادت [الهاء] فى [ذَكره] وهو ضمير مذكر إلى مؤنث – وهى التذكرة – إذ هو بمعناها فكلاهما مصدر ، [تقول : ذكَّرت تذكيراً وتَذْكِرهْ ، مثل ، قدمتُ تقديماً وتقدِمهْ] ، فكان هذا التعديل فى نهاية الكلمة لتتعادل الفواصل .

وأما ﴿ فَمنْ شاءَ اتَّخَذ إلى ربِّه سبِيلاً ﴾ ، وإن كان بمعنى ﴿ فمن شَاءَ ذَكَرَهْ ﴾ لكنه عدل إلى قوله : ﴿ اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً ﴾ للتوفيق بين الفواصل فى هذه السورة ، إذ كانت مرادفة بياء أو واو ، ومنقطعة بالألف ، فحصل بالمكانين اتفاق المعنيين ، مع ملاءمة الفواصل فى الموضعين .

فالتعبير المألوف الذى يجب أن يكون عليه فى الآية الأولى ﴿ كلا إنَّه تَذْكِيرٌ ، فمن شاء **ذكَرَهْ** ﴾ ، أى من شاء انتفع فيكون ذاكرا له ، وإذا لم ينتفع به فيكون كالناسى له ، وإذا جاء على هذه الصورة عاد الضمير فى [ذكره] على العائد المذكر [تذكير] على المألوف والمعتاد .

لكن التعبير القرآنى آثر أن يؤنث ما أصله أن يذكر ، وأن يبدل [تذكره] بـ [تذكير] ، وهما بمعنى واحد ، تعديلا للمقاطع ، وتناسبا من أجل الفواصل .

كذلك ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ هى بمعنى [فمن شاء ذكره] وكانت فى مكان بفاصلة ، وفى آخر بفاصلة ، تبعا للفاصلة الموجودة فى كلتا السورتين ، ومراعاة للتناسب فى كلا الموضعين .

٣ – الجمع بين المجرورات : [١]

وذلك كقوله تعالى خطابا للمشركين :

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

[الإسراء ٦٩]

فقد توالت المجرورات بالأحرف الثلاثة وهى : اللام فى [لكم] ، والباء فى [به] ، وعلى فى [علينا] ، وكان الأحسن الفصل بينها ، لكن التعبير القرآنى فضل ترك الفصل بين تلك الروابط ، لأن فواصل السورة كلها منصوبة منونة ، فلم يكن بد من تأخير كلمة [تبيعا] لتكون هذه الآية مناسبة لنهايات ما قبلها وما بعدها حتى تتناسق السورة كلها على صورة واحدة ، وإيقاع واحد .

٤ – حذف همزة أو حرف : [٢]

أما حذف الهمزة ، فكقوله تعالى :

---

(١) البرهان جـ ٦٢/١ .

(٢) البرهان جـ ٦٢/١ .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [مريم ٧٣ ، ٧٤]

فقد قرئت (رِئيا) على خمسة أوجه :

(أ) رِئْيا – وهو المنظر والهيئة ، فِعْل بمعنى مفعول من (رأيت) .

(ب) رِيئا – على القلب ، كقولهم [راءٍ] فى [رأى] .

(جـ) رِيّا – على قلب الهمزة ياء وإدغام الياء فى الياء .

(د) رِيّا – من الرى – وهو النعمة ، من قولهم : [رَيَّانٌ من النعيم] .

(هـ) رِيَا – على حذف الهمزة رأسا[1] .

فهذه القراءات الثلاث الأخيرة ، قرئت على هذا الوضع لتتوافق المقاطع ، وتتناسب الفواصل .

كما حذف الحرف الأخير من [يَسْرِ] فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفجر ١ – ٥]

فقد حذفت [الياء] من [يسرى] ، وهى أصلية لرعاية الفاصلة .

ويحكى عن الأخفش أن المؤَرِّجَ السَّدوسىّ[2] سأله عن حذف الياء

---

(١) الكشاف جـ ٧٥/٢ .

(٢) البرهان جـ ١٠٧/٣ .

من [يسر] ، فقال : لا أجيبك حتى تنام على بابى ليلة ، ففعل ، فقال له : « إن عادة العرب إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه ، والليل لما كان لا يسرى ، وإنما يُسرى فيه نقص منه حرف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وكانَتْ أمُّكِ بَغِيًّا ﴾[مريم ٢٨] ، والأصل : ﴿ بَغِيَّة] فلما حول ونقل عن فاعل نقص منه حرف » .

كما حذفت ياء المتكلم من [يَهدِينْ ، ويَسقِينْ ، يَشفينْ ، يُحيِينْ] من قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء ٧٥ – ٨١]

٥ – تأخير ما أصله أن يقدم :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه ٦٧ ، ٦٨]

وأصل الكلام : فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، فقدم المفعول على الفاعل ، وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول ، وبحرف الجر ومجروره ، قصدًا لتحسين النظم ، ورعاية الفاصلة .

وقد أنكر ابن الأثير(١) رأى الزمخشرى(٢) من أن تقديم المفعول يفيد الاختصاص فى مثل قوله تعالى فى وصف أصحاب الجحيم :

(١) المثل السائر جـ ٢١٩/١ .

(٢) الكشاف جـ ١٥٣/٣ .

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة ٣٠ ، ٣١]

فقال : تقديم المفعول « الجحيم » على الفعل « صلُّوه » لم يكن للاختصاص ، وإنما للفضيلة السجعية ولا مراء فى أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن مما لو قيل : خذوه ، فغلوه ، ثم صلُّوه الجحيم .

ثم يفند زعم الزمخشرى ، فيقول : « فإن قيل : إنما قدمت [الجحيم] للاختصاص ، لأنها نار عظيمة ، ولو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيدا ، وزيدا ضربت .

فالجواب : أن الدرك الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغى أن يُخَص بالذكر دون الجحيم ، على ما ذهب إليه ، لأنه أعظم .

ثم يقسو عليه فى العبارة ، ويشتد فى التعنيف ، فيقول :

وهذا لا يذهب إليه إلا من هو بنجوة عن رموز الفصاحة والبلاغة . وهكذا يقال فى ﴿ سلسلةٍ ذَرْعُها سَبْعونَ ذِرَاعاً فاسْلُكُوه ﴾ فإنه لم يقدم (السلسلة) على (السَّلك) للاختصاص ، وإنما قدمت لمكان نظم الكلام ، ولاشك أن هذا أحسن من أن لو قيل : ثم اسلكوه فى سلسلة ذَرْعها سبعون ذراعا .

٦ – إفراد ما أصله أن يجمع :

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۝ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر ٥٢ – ٥٥]

والأصل [الأنهار] وإنما وحد لأنه رأس آية ، فقــابل بالتوحيد رؤوس الآيات – قال هذا الفراء .

وكقوله تعالى يعاتب المشركين لاتباعهم الشيطان : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف ٥٠ – ٥١]

قال ابن سيدة فى المحكم [1] – أى أعضادا ، وإنما أفرد ليُعَدِّل رؤوس الآيات بالإفراد .

٧ – **جمع ما أصله أن يفرد** : [2]

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴾ [إبراهيم ٣٠ ، ٣١]

فإن المراد – ولا خُلّة – بدليل الآية الثانية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ ﴾ [البقرة ٢٥٤]

فجمعت فى الآية الأولى لأجل مناسبة رؤوس الآيات .

(١) المحكم جـ ٢٤١/١ .

(٢) البرهان جـ ٦٣/١ ، ٦٤ .

٨ – **تثنية ما أصله أن يفرد** :[١]

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن ٤٦ – ٤٩]

قال الفراء : المراد بـ [الجنتان] فى الآية تلك ، جنة[٢] واحدة ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ [النازعات ٤١]

فثنى لأجل الفاصلة ، والقوافى تحتمل من الزيادة والنقصان مالا يحتمله بقية الكلام .

ونظير ذلك قوله تعالى فى قصة ثمود : ﴿ إِذ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس ١٢] فإنهما رجلان : قُدار وآخر معه ، ولم يقل أشقياها للفاصلة .

ثم إن الفراء قال[٣] : « وهذا باب مذهب العرب فى تثنية البقعة الواحدة ، وجمعها واستشهد بقول زهير :

دِيَارٌ لها بالرَّقْمَتَيْن كأنَّها مراجيعُ وشْمٍ فى نَواشِرِ مِعْصَم[٤]

[الرقمتان] مكانان ، والمراد مكان واحد ، وثنى على عادة العرب فى ذلك » .

---

(١) نفسه ٦٤ .

(٢) الإتقان تحقيق محمد أبو الفضل جـ ٢٩٩/٣ .

(٣) القرطبى جـ ١٤٩/٢ .

(٤) الرقمتان : مكانان إحداهما قرب المدينة ، والأخرى قرب البصرة ، الوشم : أن يثقب ظاهر الذراع بإبرة ثم يحشى بالكحل ليخضر ، فقد شبه آثار الديار بالوشم الذى أعيد وكرر ، النواشر : عروق ظاهر الذراع – وقيل : الظاهر والباطن (شرح القصائد السبع للأنبارى ٢٣٨) – لكن الفراء يقول : إنها واحدة ثم ثنيت على عادة العرب فى ذلك .

وقول الشريف المرتضى :

فقُولاَ لأهل المكَّتَيْن تَحَاشَدُوا وسيرُوا إلى آطامِ يَثْربَ والنَّخْلِ [1]

فـ [المكتان] مكة والمدينة – على التغليب ،أو المراد مكة فقط ، وثنيت على عادة العرب فى ذلك .

ثم إن الشاعر يشير بذلك اللفظ إلى نواحيها ، أو للإشعار بأن لها وجهين ، وأنك إذا وصلتها ونظرت إليها يمينا وشمالا ، رأيت فى كلتا الناحيتين ما يملأ عينك قوة ، وصدرك مَسَرَّة .

فقد ثنيت [جنتان] وأفردت [أشقاها] لأجل الفاصلة ، رعاية للتى قبلها ، والتى بعدها ، إذ هى على هذا الوزن ، والقوافى تحتمل فى الزيادة والنقصان مالا يحتمله بقية الكلام .

لكن رأى الفراء هذا يثير ثائرة ابن قتيبة ، فيقول مشددا حملته عليه : [2]

« وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله ، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسف هذا التعسف ، أو نجيز على الله الزيادة والنقصان فى الكلام لرأس آية ، وإنما يجوز فى رؤوس الآى أن نزيد [هاء] للسكت ، كقوله : ﴿ وما أدْرَاك ما هِيَهْ ﴾ ، أو [ألفا] كقوله : ﴿ وتَظُنُّون باللَّه الظُّنُونَا ﴾ ،أو نحذف همزة من الحرف كقوله : ﴿ أثَاثاً ورِئْياً ﴾ ،أو

---

(١) أراد بـ [المكتين] مكة والمدينة ، فغَلَّب (أمالى المرتضى جـ ٢/١٤٨) ، لكن الفراء يرى أنها مكة واحدة ثم ثنيت على عادة العرب .

(٢) القرطبى جـ ١٥٠/٢ ، الإتقان جـ ١٠٠/٢ .

[ياء] كقوله : ﴿ إذَا يسْرِ ﴾ لتستوى رؤوس الآى على مذهب العرب فى الكلام ، لأن هذا لا يزيل معنى عن وجهته ، ولا يزيد ولا ينقص.

فأما أن يكون وعد جنتين فيجعلها جنة واحدة من أجل رؤوس الآى ، فمعاذ الله ، وكيف يكون هذا ، وهو تبارك يصفها بصفة الاثنين ، فقال تعالى : ﴿ ذَوَاتَا أفْنَان ﴾ ، ثم قال : [فِيهِمَا] .

ولو أن قائلا قال فى خزنة النار : إنهم عشرون ، وإنما جعلهم تسعة عشر لرأس الآية ، كما قال الشاعر :

* نحن بَنُو أمِّ البَنِينَ الأرْبَعَة *

وإنما هم خمسة ، فجعلهم للقافية أربعة ، ما كان هذا القول إلا كقول الفراء » .

٩ – اختلاف الترتيب :

يحكى تعالى قصص الأولين للعبرة والعظة ، فيقول :

﴿ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾
[ص ١٢ – ١٤]

ويقول : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾
[ق ١٢ – ١٤]

فما السبب فى اختلاف الترتيب فى هاتين الآيتين ؟ ولماذا ختمت الآية الأولى فى سورة ص ﴿ فحق عقاب ﴾ ، والثانية فى سورة ق بـ ﴿ فحقَّ وعيد ﴾ ، والمعنى فى السورتين يكاد يكون واحدا ؟

السبب فى ذلك : أن سورة (ق) مبنية فواصلها على أن يُرْدَف آخر حرف منها بالياء أو بالواو ، وعلى ذلك جاءت جميع آياتها [ثمود ، لوط ، وعيد] .

وسورة (ص) بنيت فواصلها على أن تُرْدَف أواخرها بالألف ، ولذلك كانت فواصل هذه السورة كلها من الآية الثانية إلى الآية السادسة والستين ، أواخرها تردف بألف ، مثل [شقاق ، مناص ، عجاب] ، فجاءت هذه الآيات بين هذه الفواصل ، على الفاصلة ذاتها [ذو الأوتاد ، الأحزاب ، عقاب] – ولهذا اختلفت الآيات فى فواصلها فى سورتى [ص ، ق] ، فكل فاصلة كانت متفقة مع فاصلة سورتها .

وأما اختلاف الترتيب فواضح ، ففى آيات[1] (ص) ذكر ستة أقوام ، وفى آيات (ق) ذكرت ثمانية ، فهم ستة مكررة فى كلتا الآيتين ، ولم يقع أحد منهم فى ترتيب الآخر سوى « قوم نوح » ، فقد كان فى صدر الآيتين .

والسبب فى اختلاف هذا الترتيب هو الحفاظ الكامل على فاصلة كل آية مع فواصل سورتها ، ولم يعمل بقانون الترتيب فى الآيات مراعاة لفواصل كل سورة .

ويقول تعالى حكاية عن سحرة فرعون :﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف ١٢٠ – ١٢٢]

(١) ففى سورة (ص) قوم نوح : وعاد ، وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة . وفى سورة (ق) قوم نوح ، وأصحاب الرس ، وثمود ، وعاد ، وفرعون ، وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع .

وفى مكان آخر يقول : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء ٤٦ – ٤٨]

وفى مكان ثالث : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ... حَيْثُ أَتَىٰ ۝ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه ٦٨ – ٧٠]

فلماذا اختلفت الفواصل فى الآيات الكريمة فجاء فى موضع ﴿ برب هارون وموسى ﴾ وفى آخر ﴿ ربِّ موسى وهارون ﴾ ؟

السبب فى ذلك أن الفواصل فى سورة (الأعراف) بنيت على [الياء والنون] أو [الواو والنون] ، وكذلك سورة (الشعراء) ، ولهذا قدم [موسى] فيهما حتى تكون الفاصلة [هارون] بالواو والنون كالآيات قبلها ، فيتم التناسق بين الفواصل ، ويتحد الإيقاع .

أما فى سورة (طه) فالفاصلة بنيت على الألف فى هذه الآيات ، ولهذا قدم [هارون] ، وأخر [موسى] حتى تتسق الفواصل ، وتتجانس أواخر الآيات .

ولما كان القصد حكاية المعنى فى سورة (طه) لا أداء اللفظ على جهته – كما فى سورتى الأعراف والشعراء – حذف منها [رب العالمين] استغناء عنها بما دل عليها من قبل .

وقد نقل صاحب الإتقان[1] أن الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى ألف كتابا سماه [إحكام الراى فى أحكام الآى] ، وقال فيه :

(١) الإتقان جـ ٩٩/٢ ، ١٠٠ ، المعترك جـ ٣٣/١ ، ٣٧ .

« اعلم أن المناسبة أمر مطلوب فى اللغة العربية يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول ، وقد تتبعت الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة ، فعثرت منها على ما نيف عن الأربعين حكما » .

وقد أوجزها السيوطى فى صفحتين ، ثم ختمها بقول ابن الصائغ :

« قال ابن الصائغ : لا يمتنع فى توجيه الخروج عن الأصل فى الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة ، فإن القرآن العظيم – كما جاء فى الأثر – لا تنقضى عجائبه » .

الفاصلة ليست مجرد توافق ألفاظ :

من الباحثين من ينظر إلى الفاصلة – أو السجع – فى الكلام عامة على أنه مناسبة لفظية مرغوبة ، ومطلوبة فى اللغة العربية ، فهى تريح القارئ من البهر ، وترشده إلى تلوين الصورة ، وإجادة الوقف ، وتزيد من روعة التلاوة ، بما تخلع عليها من إيقاع محبب ، وتمد القراء بألوان من التنغم المؤثر والتطريب الأخاذ .

وهذا إن صدق فى سجع الكُتّاب ، فلا يصدق إطلاقا على الفاصلة فى القرآن الكريم فعلينا ألا ننظر إلى بلاغة الفاصلة فى القرآن هذه النظرة المحدودة التى لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ ، فإن هذه الصورة اللفظية الحسية مع جمالها لا يصح أن تصرفنا ، ولا تحجب عن ذهننا ما استتر فيها من بدائع الأسرار ، ودقائق الأغراض .

فالفاصلة فى القرآن الكريم لها مزية هامة ترتبط بما قبلها من الكلام بحيث تنحدر على الأسماع انحدارا ، وكأن ما سبقها لم يكن إلا تمهيدا لها ،

وبحيث إذا حذفت لاختل المعنى فى الآية ، ولو سكت عنها القارئ ، لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع ، والذوق السليم .[1]

فليست فواصل القرآن مجرد توافق ألفاظ وأوزان ، بل لها علاقة وثيقة بما قبلها من نص فى الآية ، وقد أبرز ذلك العلماء لدى تعريفهم للفاصلة .

فقال الرمانى[2] الفواصل ، حروف متشاكلة فى المقاطع ، توجب حسن إفهام المعانى .

وقال الباقلانى :[3] الفواصل ، حروف متشاكلة فى المقاطع ، يقع بها إفهام المعانى .

ونحن نحس عندما نسمع القرآن الكريم أو نتلوه أن لهذه الفواصل نغمات نفسية ومعنوية ، وإيقاعا يعطى الإنسان رَوْحاً ، ويحس عندها بمتعة فنية مؤثرة ، تثبت فى الفؤاد الطمأنينة والارتياح .

ولعل الفاصلة مأخوذة من قوله الله تعالى :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت ٣]

وبها يتم المعنى ، ويزداد وضوحا وجلاء ، ومكانها من الآية مكان القافية من البيت .

---

(١) البديع فى ضوء أساليب القرآن ١٤٣ .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن ٨٩ .

(٣) إعجاز القرآن ٢٧٠ .

علاقة الفاصلة بما قبلها :

للفاصلة علاقة وثيقة بما قبلها من النص القرآنى فى الآية ، وقد يشير سياق الآية إلى فاصلتها إشارة لفظية جلية ، وقد يظهر ذلك بعد بحث وتأمل .

وعلاقة الفاصلة بما قبلها تنحصر فى أربعة أشياء ، وهى ما سماه البلاغيون : بالتمكين ، والتوشيح ، والتصدير ، والإيغال .

فالتمكين(1) : هو أن يمهد للفاصلة قبلها تمكينا تأتى به ممكنة فى مكانها ، مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى مواضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما ، بحيث لو طرحت الفاصلة جانبا لاختل المعنى ، واضطرب الفهم .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى فى غزوة الأحزاب : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الاحزاب ٢٥]

فإن الكلام لو اقتصر فيه على قوله : ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ لأوهم ذلك بعض الضعفاء موافقة الكفار فى اعتقادهم أن الريح التى حدثت كانت هى سبب رجوعهم ، ولم يبلغوا ما أرادوا ، وأن ذلك أمر اتفاقىّ ، فأخبر سبحانه فى فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة، فقال : ﴿ وكان الله قويا عزيزا ﴾ ، لِيُعْلِم المؤمنين ، ويزيدهم إيمانا ويقينا على أنه

---

(1) البرهان ٩٥/١ .

الغالب الممتنع ، وأن حزبه كذلك ، وأن تلك الريح التى هبت ليست اتفاقا ، بل هى من إرساله - سبحانه - على أعدائه كعادته ، وأنه ينبوع النصر للمؤمنين ، ليزيدهم إيمانا ، وينصرهم مرة بالقتال كيوم بدر ، وتارة بالريح كيوم الأحزاب ، وتارة بالرعب كبنى النضير ، وتعريفا لهم أن الكثرة لا تغنى شيئا ، وأن النصر من عنده كيوم حنين .

ومن التمكين فى الفاصلة أيضا قوله تعالى :﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود ٨٧]

فإنه لمـــا تقـــدم ذكر العبادة والتصرف فى الأموال كان ذلك تمهيدا تاما لذكر الحلم والرشد ، لأن الحلم هو العقل الذى يصح به التكليف فى العبادات ، والرشد حسن التصرف فى الأموال ، فكان آخر الآية مناسبا لأولها مناسبة معنوية .

الثانى التصدير : وهو أن يتقدم لفظة الفاصلة بمادتها فى أول صدر الآية ، أو فى أثنائها ، أو فى آخرها ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران ٨]

﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء ٢١]

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ [طه ٦١]

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة ١٠٨]

سمى ذلك البلاغيون المتقدمون [رد الأعجاز على الصدور] .

الثالث : **التوشيح** ، وهو أن يرد فى الآية معنى يشير إلى الفاصلة حتى تعرف منه قبل قراءتها ، كقوله تعالى :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يس ٣٧]

فإن من كان حافظا لهذه السورة ، متيقظا إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة ، هداه صدر هذه الآية : ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ علم أن الفاصلة (مظلمون) ، فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم ، وظل فى الظلمات مادامت تلك الحال .(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران ٣٣]

فإن معنى اصطفاء المذكورين يعلم منه الفاصلة ، إذ المذكورون نوع من جنس العالمين .

ومن التوشيح قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

[الملك ١٣ ، ١٤]

---

(١) البرهان جـ ٩٧/١ ، بديع القرآن ٩٢ .

وسمّى ذلك النوع ابن وكيع [المطمع] ، حيث إن صدره مطمع فى عجزه .

والفارق بين التصدير والتوشيح ، هو أن دلالة التصدير لفظية ، ودلالة التوشيح معنوية ، أما التمكين ، ففى الآية تمهيد له ، فتأتى الفاصلة متممة لمعنى الآية .

وقد تأتى الفاصلة على غير تمهيد سابق فتفيد زيادة فى معنى الآية — وهذا هو الإيغال .

الرابع : **الإيغال** ، أن ترد الآية بمعنى تام وتأتى الفاصلة بزيادة فى ذلك المعنى كقوله تعالى للرسول عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل ٨٠]

فإن المعنى قد تم عند قوله : ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ ، ثم أراد أن يعلمنا تمام الكلام بالفاصلة ، فقال : ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ .

وكلمة [مُدْبرين] لا يستغنى عنها ، ولا يغنى عنها [وَلَّوْا] ، لأن التولى قد يكون بجانب دون جانب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ أَعْرَضَ ونَأَى بجَانِبه ﴾ [الإسراء ٨٣] ، ولاشك أن الله سبحانه لما أخبر عنهم أنهم صم لا يسمعون ، أراد تتميم المعنى بذكر توليهم فى حال الخطاب ، لينفى عنهم الفهم الذى يحصل من الإشارة ، فإن الأصم يفهم بالإشارة ما يفهم السميع بالعبارة .

ثم إن التولِّى قد يكون بجانب مع لحاظه بالجانب الآخر ، فيحصل له إدراك بعض الإشارة ، فجعل الفاصلة [مدبرين] ليعلم أن التولِّى كان

بجميع الجوانب ، بحيث صار ما كان مستقبَلاً مستدبَراً ، فاحتجب المخاطب عن المخاطِب ، أو صار من ورائه فخفيت عن عينه الإشارة ، كما صم أذنه عن العبارة ، فحصلت المبالغة من عدم الإسماع بالكلية [١] .

ومن لطيف ما يروى فى كتب الأدب فى تأثير هذا الإيغال فى نفس السامع ، ما روى أن ابن رشيق – وقد قصر « الإيغال » على الشعر – مثل له بقول مسلم بن الوليد فى وصف تأثير الخمر فى شاربها :

إذَا مَا عَلَتْ منَّا ذُؤابة شاربٍ   تمشَّتْ به مشْىَ المقيَّدِ فى الوَحْلِ

فكلمة « مشى المقيد » تم به المعنى ، ولكنه أوغل فيه بقوله : « فى الوحل » توكيدا له .

وكان هارون الرشيد يكثر التعجب منه ، ويقول : قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيدا ، حتى جعله فى الوحل ؟[٢] .

ارتباط الفاصلة بالنص القرآنى :

الفاصلة فى الآية القرانية تكون مكان القافية فى الشعر ، تُكمل معناها ، ويَتِمُّ بها النغَم ، ويتَّسقُ الوزن ، ونحن نراها أكثر ما تنتهى تكون بالميم والنون وحروف المد ، وقد مال التعبيرُ القرآنى إلى ما ألفه العرب واعتادوه ، يقول سيبويه : « إن العرَب إذا ترنَّموا يُلحِقون الألف والياء والنونَ ، لأنهم أرادوا مدَّ الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا »[٣] .

---

(١) البرهان جـ ٩٧/١ ، بديع القرآن ٩٢ .
(٢) أطوار الثقافة والفكر جـ ١٩٨/٢ .
(٣) الكتاب جـ ٢٩٨/٢ .

فالفاصلةُ فى الآيات القرانية تأتى مستقرةً فى قرارها مطمئنةً فى مواضعها ، غيرَ نافرةٍ ولا قلقةٍ ، يتعلقُ معناها بمعنى الآية كلِّها ، بحيث لو طُرِحتْ لاختل المعنى ، فهى فى مكانها تؤدى جزءا من معنى الآية ، ينقصُ ويختلُّ بنقصانها ، وقد د ندُّ تمكن الفاصلةِ فى مكانها حتى إن السامع ليَشعُر بها قبل نطقها .

« رُوى عن زيد بن ثابت – رضى الله عنه – أنه قال : أملى علىَّ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون ١٢ – ١٤]

فقال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ فضحك رسول الله – صلى الله عليه وسلم » فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت .(١)

وأخرج ابن أبى حاتمٍ عن أنسٍ ، قال : قال عمر : وافقتُ ربى – أو وافقنى ربى – فى أربع ، لما نزلت هذه الآيةُ : ﴿ وَلَقَدْ خلقَنا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ . . الآية ﴾ قلت أنا : « فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين » ، فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسنُ الخالقين ﴾ .

وليس هذا بغريب ، فقد كان معروفا عند العرب ، وذوى الفطانة فى

---

(١) الإتقان جـ ١٠١/٢ .

الشعر ، وأصحاب الفطر السليمة فى فهم القوافى فى النظم : أنَّ أولَ البيت إذا دل على معنى مّا عُرفت منه قافيته .

وقد بحث هذا الموضوع قدامة بنَ جعفر ، فنى فصل من كتابه يقول فيه : [ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت][1] فأول البيت إذا دل على معنى عُلمت منه قافيتُه .

ومما وقع من هذا المعنى : « ما حُكِي عن عُمر بن أبى ربيعةُ المخزومى أنه أنشد عبدَ اللهِ بنَ عباس – رضى الله عنهما –

* تَشِطُّ غَداً دارُ جِيرانِنا *

فقال عبدُ الله : * ولَلدَّارُ بعد غدٍ أبْعَدَ *

فقال عمر : هكذا والله قلت .

ومن هذا قصةُ عدىٍّ بين الرِّقاعِ العاملىٍّ حين أنشد الوليد بنَ عبد الملك بحضرة جريرٍ والفرزدق قصيدته الَّتى مطلعها :

عَرف الدِّيارَ توهُّما فاعْتَادَها   من بعْدِ ما شَمِل البِلَى أبْلاَدَها

حتى انتهى إلى قوله فى وصف الظبى :

* تُزْجِى أَغَنّ كأنَّ إبْرةَ رَوْقِه *

ثم شُغل الوليدُ عن الاستماع ، فقطع عدىٌّ الإنشاد ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال جريرُ : أَرَاهُ يستلب منها مثلا ، فقال الفرزدق : ياَلُكَع إنه سيقول :

* قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَها *

فلما عاد الوليد إلى الاستماع ، وعاد عدِىٌّ إلى الإنشاد ، قال :

(١) نقد الشعر ١٦٦ .

* قلم أصاب من الدواة مدادها[1] *

فقال جرير للفرزدق : أكان قَلْبُك مخبوءاً فى صدره ؟

فقال الفرزدق : والله لما سمعتُ صدر بيته رحمتُه ، فلما أنشد عَجُزَه : انقلبت الرحمةُ حسَداً[2] .

فالعربى كان يحس بالإحكام فى نظام القافية ، أو بالخَلل فيها – وهى تشبه الفاصلة فى النثر – إحساسا فطريا ، ويتذوقه جِبِلَّةً وطبْعاً ، وعمادُه فى الحكم سليقتُه وذوقُه ، فهما اللذان يهديانه إلى الجيد من القول .

وأىٌّ حكمٍ كانوا يحكمونه على قصيدةٍ مّا ، كان لايصدر عن تعليل ، أو تفسير ، ولا يستند على قواعدَ مقررة ، وليس لها من دِعامة إلا الذوق العربى المحض .

ولقد بلغ من إرهافِ السمع ، وحدةِ الملاحظة الصوتية ، أنهم لاحظوا على النابغة اختلاف حركة الروىِّ فى القصيدة – مما سماه العلماء بالإقواء –

فقد رَوى الرواة أن النابغة أنشد قصيدةً ، فلوحظ عليه فيها اختلافُ حركةِ الروىِّ ، ولم يستطعْ أحد أن يصارح النابغة بهذا العيب ، حتى دخل يثرب مرة ، فأسمعوه شعره هذا بطريقة الغناء ، وهو :

أمِنْ آلِ ميَّة رائحٌ أو مُغْتَدِى عجْلَانَ ذَا زَادٍ ، وغيرُ مزوَّدِ

زعم البوارحُ أنَّ رِحلتَنَا غَداً وبذَاك حدَّثَنَا الغرابُ الأَسْوَدُ[3]

---

(١) تزجى : تسوق ، الأغن : ذو الغنة وهو صوت يتردد بين اللهاة والأنف ، وكذلك صوت الظبى ، ولذا غلب عليه لقب الأغن ، الروق : القرن ، إبرته : رأسه وتكون سوداء .

(٢) تحرير التحبير ٢٣٠ .

(٣) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ١٣ من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الأستاذ طه إبراهيم .

فَذمٌّ هذا النوع قائم على البصر بالشعر ، ويعتمدُ على وقعهِ فى السمع ، وعلى الانسجام والتماثل فى القافية ، فالذين نَفَرتْ أسماعُهم من اختلاف حركة الروى فى القافية كانوا مدفوعين فى ذلك بسليقتهم .

فلا عجب بعد هذا إذا سمعنا أن بعض الأعراب سمع قارئا يقرأ : ﴿ والسارق والسارقةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيهُما جَزاءً بما كسَبَا نكالاً من اللّه ﴾ وختمها بقوله ﴿ والله غفور رحيم ﴾ .

فقال الأعرابى : ما هذا فصيح ؟

فقيل له : ليست التلاوة كذلك ، وإنما هى ﴿ والله عزيزٌ حكيمٌ ﴾ .

فقال : بَخٍ بَخٍ ، عَزَّ ، فحكم ، فقطع [1] .

وعن عمران بن جُدَيْر ، قال : قرأت على أعرابى سورة براءة ، فقال : كأن هذا آخر ما نزل من القرآن ، قلت : كيف ؟ قال : « أرى أشياء تقضى ، وعهودا تنبذ » [2]

* * *

وسنعرض لكثير من الفواصل فى آيات القرآن ، ونحاول أن نفسر علاقةَ الفاصلة بما قبلها ، وارتباطها بالمعنى المراد من الآية الكريمة ، والغرض المقصود منها .

والباحثُ فى فواصل القرآن الكريم يجد أنها تكون فى مقامات مختلفة ، فمنها ما يساق لإقناع المشركين بحقيقة البعث والنشور ، ومنها ما يكون القصدُ منه تَذْكِيرهم بنعم الله ، وانغمارِهم فى خيراته ، ومنها ما يكون فى

---

(١) البحر المحيط جـ ٤٨٤/٣ .

(٢) أطوار الثقافة والفكر جـ ١٨٣ .

مخاطبة المنافقين من المشركين واليهود ، ومحاجتهم ، وفضْح حالِهم ، ومنها ما يكون فى خلاف هذا وذَاك .

وقد تكون تلك الفواصلُ مختلفةً والمتحدَّثُ عنه أمرٌ مختلف ، أو تكونُ الفواصلُ مختلفةً والمتحدثُ عنه أمر واحدٌ ، أو تكون الفواصلُ متفقةً ، والمتحدَّثُ عنه أمرٌ مختلف ، وسنكشف عن هذه الأنواع على التوالى .

اختلاف الفواصل والمتحدث عنه مختلف :

فواصل لإقناع المشركين بحقيقة البعث والنشور :

كانت مسألة الحياة الآخرة من المسائل العقَديّة المهمة التى وجَّه إليها القرآنُ أهميةً خاصة ، كما كان الاعترافُ بالإله الذى خلق الخلق ، وواهب الحياةِ والرزق من الأمور التى وجَّه إليها انتباه الناس ، وحثَّهم من خلالها على البحث والتأمل .

كما كانت الظواهرُ الطبيعيةُ التى ملأتْ العالَم من الشمس ، والنجوم ، والبحارَ ، والأنهار ، والليل والنهار ، والاختلاف الظاهر بين البشر فى الألسنة والألوان ، والتغيرات التى نشاهدها . والتى تنشأ عن نزول المطر من إحياء الأرض بعد همودها ، واخضرارها بعد اغبرارها ، وغير ذلك مما فى الكون من عجائب ، وفى نفس الإنسان من غرائب ، كلٌّ ذلك وغيرُه مما أشار إليه القرآن الكريم ، وخصَّه بفواصل لشد أفئدتهم ، وإثارة الانتباه فيهم ، وحمْلِهِم على النظر والتدقيقِ فى تلك العوالم ، ليتوصَّلُوا من ذلك إلى الإيمان بالخالق جل جلاله وإدراك ألوهيته وربوبيته .

وسنرى من تلك الفواصل ما يُشير إلى هذا ، ويُوحى إليه :

١ – تأمل قوله تعالى يوجه أنظار الناس إلى التأمل والبحث فى الظواهر الطبيعية التى ملأت الدنيا من حولهم ، ثم إنه تعالى يختم كل مظهر من هذه المظاهر بفاصلة يشعُر السامع أنها متممةٌ للمعنى ، مكملةٌ للغرض ، يقول سبحانه : (١)

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ
وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ
مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل ٥٩ – ٦٤]

فهذه خمس آيات ختمت بخمس فواصل ، وكلُّها بعد جملة واحدة [أ إله مع الله ؟] ، فلماذا اختصَّتْ كلُّ فاصلة بموضعها ؟ وهل تقدَّمَ على كل فاصلة ما يوجب اختصاص ذلك بها دون غيره ؟

(١) انظر فى هذه الآيات فى ظلال القرآن ، درة التزيل ٣٣٨ ، من روائع القرآن ٣٣٢ ، الكشاف جـ ٣٧٦/٣ .

اختصت كل فاصلة بموضعها ، لأنه تقدم على كل فاصلة ما يمهد لها ، حتى جاءت الفاصلة قارة فى مكانها ، فقوله تعالى :

(أ) ﴿ أمَّن خلق السموات والأرضَ ، وأنزلَ من السَّماءِ مَاءً ؟ ﴾

هذا الاستفهام المقصود منه تقريعُ المشركين ، وتسفيهُ آرائهم السقيمة ، وإلا فمن الواضح أنه لا يُوجد تلاقٍ فى جنس الخيرية بين الأوثان التى يؤمنون بها ، والإله الواحد ، حتى يُتصوَّرَ معنى التفاضل ، والسؤال عن الأفضل منهما .

ولما كان خَلْقُ السموات والأرض ، وإنزالُ الماء من السماء ، لا يُتوقع لأحد أنْ يدَّعيَه لنفسه ، كان الكلام على سبيل الغيبة ، لكنَّ إنباتَ الزرع والأشجار كثيرا ما يَنْسِبُ صاحبُ البذْر والسَّقْيِ الزرع لنفسه ، فيقول : أنبتُّ الزرع ، لهذا ناسب تغييرُ الأسلوبِ فى الخطابِ بالالتفات ، وتبديلُ الكلام من أسلوب الغائب فى [خلق وأنزل] إلى أسلوب المتكلم فى [فأنبتنا] تأكيدٌ لمعنى اختصاص هذا الفعل بذاته تعالى ، وإشعاربأن ظهور النبات بألوانه الزاهية ، وطعومِه المختلفة ، وخصائصه المتنوعة ، إنما هو من فعل الخالق جل جلاله ، ثم رشَّح هذا المعنى بقـوله : (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) .

فالسمواتُ والأرضُ حقيقة لا يملك أحدٌ إنكارها كذلك الماءُ النازلُ من السماء حقيقة مشهورة لا يمكنُ تغافلها فيوجه القرآن الأنظار إلى هذه الآثار الحية القائمة ، وهم عنها غافلون ، فمن يملك تلوين زهرةٍ واحدة ، وتنسيقها ؟ كل هذا ليثير التطلع والانتباه ، وتحريك التأمل والتفكير .

وجوابُ هذا الاستفهام محذوفٌ يدل عليه العَقْلُ ، والذى يُنْتظَر منه الجواب هم المخاطَبون ، وتقف الآيةُ عن الإجابة لإتاحة الفرصة للتفكير والتأمل .

ثم يأتى الأسلوبُ باستفهام آخر متصلا بالأول (أ إله مع الله ؟) ، وجاء بالمبتدأ نكرة بعد الاستفهام المراد منه النفى ، ليعمَّ النفىُ — أى ، أيوجود أىٌّ إلهٍ مع الله ؟ — والإجابة : أنه لا مفر من الإقرار والإذعان بأنه لا إله إلا الله .

ثم يختم الآية بالفاصلة (بل هم قوم يعدلون) مضرباً عن حديثهم ، ملتفتاً عنهم ، حاكياً حالهم ، فهم يعدلون عن الحق الواضح ، أو يعدلون ، ويسوون آلهتم بالله فى العبادة ، وكلا الأمرين لا يليق .

(ب) وهذه حقيقة كونية أخرى تتعلق بخصائص الأرض :

﴿ أمّن جعَل الأرْضَ قَراراً ، وجعل خِلالَها أنَهاراً ، وجعل لها رَوَاسِىَ ، وجعل بيْن البحريْن حَاجزاً ؟ . . ﴾ .

جعل الله الأرض قرارا للحياة ، صالحة للنمو والتكاثر ، ويتمكن الناسُ من القَرار عليها ، وذلك يتعلقُ بصلابَتها ، وطبيعة الإنبات المودَعةِ فيها ، وضبط ثقلها ، ومدى بُعْدِ الشمس عنها ، وغير ذلك مما يُيَسِّر العيشَ عليها ، والإقامة فوقها ، ولَو تغيَّر وضعُها أو شكلُها أدنى تغيير فيها لما صارت صالحةً للقرار .

وجريانُ الأنهار حقيقة يراها المشركون ، كذلك يرون الجبال ثابتةً مستقرة ، تمنع الأرض من أن تميد بأهلها ، وتلاحظ أن الأنهار الجارية فى الآية تقابل الرواسى الثابتة .

وجعل بين البحرين حاجزا : البَحْرُ المالحُ ، والنهر العذب ، وسماهما القرآن بَحْرَيْن على سبيل التغليب ، من حيث مادتهما المشتركة وهى الماء ، والحاجز الذى بينهما : هو حاجز طبيعى ، يجعل البحر لا يفيضُ على النهرُ فيفسدُه ، إذ جعل مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر ، وحتى حين يلتقيان لأى سبب فإن الحاجز يظلُّ قائما ، لما بين الماء الملح ، والماء العذبُ من فرق فى الكثافة إذ يخفُّ ماء النهر ، ويثقُل ماء البحر ، فيظل مجرى كل منهما متميزا لا يمتزجان ، ولا يبغى أحدهما على الآخر.

وتقف الآية عن الإجابة – كالآية الأولى – انتظارا لإجابة المخاطَبين ، وإتاحةِ الفرصة للفكر والتأمل – ويأتى الأسلوبُ بسؤال آخر متصل بالسؤال الأول ﴿ أ إله مع الله ﴾ ؟ ، والإجابة أنه لا مفر من الإقرار والإذعان لله .

ثم يختم الآية بالفاصلة ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ مضربا عن حديثهم ، ملتفتا عنهم ، حاكيا حالهم ، ولما كانت هذه المسائل المستفهم عنها تحتاج إلى العلم ليكشف عن سرِّ الصنعة كانت الفاصلة : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُون ﴾ .

(جـ) ﴿ أمَّنْ يُجيبُ المضْطر إذا دعاهُ ، ويكشِفُ السُّوءَ ، ويَجعلُكم خُلفاءَ الأرْضَ ﴾

فى هذه الآية أدلة من نوع آخر فى خاصة أنفسهم – فمن خصائص النفس البشرية أنه فى لحظات الضيق والكرب لا يجد الإنسان ملجأ إلا الله ، وهذه حقيقة كامنة فى الفِطَر ، فالقرآن الكريم يرد المشركين إلى هذه الحقيقة ، ويذكرهم بها ، فعندما تتخاذل كل القوى ، وتتهاوى الأسناد ،

وتضيق الحلْقة ، فى هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الحقيقية وهى الله تعالى ، وتنظر إلى السماء فى ذلة وضراعة – والسؤال فيه تذكير بهذه الفطرة الإنسانية .

ثم إن الله تعالى يخلفُ بعضكم بعضا فى عمارة هذه الأرض ، تتوارثون سكناها ، والتصرف فيها جيلا بعد جيل ، وقدَّر الموت والحياة ، ولو عاش الأولون لضاقت الأرض ، ولأبطأ سير الحياة ، لأن تجدد الأجيال هو الذى يسمح بتجدد الأفكار .

وأيضا تقف الآية عن الجواب – كالآيات قبلها – لتنطق به الفطرة السليمة بعد التأمل والتفكير ، ثم يأتى الاستفهام الآخر ﴿أإله مع الله ؟﴾ ، والإجابة أنه لا مفر من الإذعان والإقرار بالله .

ثم يختم الآية بالفاصلة ﴿قليلا مّا تذكرون﴾ حاكيا حالتهم التى تصدهم عند ذكر الله ، ولا يجعل الفاصلة ، ﴿بل أكثُرهم لا يعلمون﴾ كالآية السابقة ، لأن هذه الدلائل مركوزة فى فطرة الإنسان ، لا تحتاج إلى كشف مجهول ، وإنما تحتاج إلى تذكر شىء معلوم مُتَلَبِّسٍ بالإنسان ، لذلك قال : ﴿قليلا ما تذكرون﴾ وهو تعبير يراد منه عدم التذكر مطلقا .

(د)﴿أمَّن يهْدِيكم فى ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ ، ومَنْ يُرسل الرِّياحَ بُشْراً بيْنَ يَدَىْ رحْمتِه﴾؟

فهم يسلكون فجاج البر والبحر فى أسفارهم وتجارتهم ، فمن يهديهم ، ومن يُقدِرهم على الاهتداء بالنجوم ؟ ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ؟

فهذه مشاهدات لا تنكر ، ولذلك تقف الآيةُ عن الإجابة ، لتنطق به الفطرة السليمة بعد التفكر والتأمل ، ويأتى الاستفهام الآخر ﴿ أ إله مع الله ﴾ ؟ وأيضا : فلا مفر من الإقرار والإذعان لله،ثم يختم هذه بفاصلة تنزه الله تعالى ، وتفرده بالعظمة ، فقال : ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ .

وهذه الآية فى موضوعها تشبه قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام ٦٣ ، ٦٤]

فلمَّا خُتمت هذه الآية التى فى معناها بقوله :﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ ختم هذه بقوله : ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ ، لأن المذكورون فى هذه الآية هم المذكورين فى تلك .

(هـ)﴿أمَّن يَبْدَأُ الخَلْق ثم يُعيُده،ومن يَرْزُقكم من السَّماءِ والأَرْض﴾؟

فبدأ الخلق يُسَلِّمون به ، أما الإعادة فهى التى كانوا يجادلون فيها ، لكن الإقرار بالبدء فيه اعتراف بالبعث ، إذ الإعادة أهون من البدء ، فيما يقرره العقل ، ثم إن الرزق من السماء والأرض ، فلهم منه فى الحياة الدنيا ، الضوء ، والحرارة ، والمطر ، وبقية مَا يُيَسِّر لهم الحياة .

وبعد فهذه براهين وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته على البعث والنشور ، يُقَرِّرُها العقلُ ، ويعقلُها المنطق ، فقدموا براهينكم ، وصدق الله العظيم قُلْ : ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾.

وبهذا بان ووضح أن كلٍّ خاتمة آية لائقة بموضعها ، قارةٌ فى مكانها .

٢ – وينبه الله تعالى الناس إلى التفكر والتدبر فى أمور أنفسهم ، وشئونٍ تدخلُ فى اختصاصهم ، وإلى ما يحيط بهم من أمور الطبيعة ، وظواهر الكون ، متخذا من ذلك وسيلةً من وسائل التدبر والتذكر ، وتختم كل آية بفاصلة ، فتقع أشدَّ ما تكون من التمكن والاطمئنان ، يقول تعالى[1] : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم ٢١ – ٢٤]

فهذه أربع آيات خُتمت بأربع فواصل ، وكلُّها بعد جملة واحدة ، ﴿ إن فى ذلك لآيات ﴾ فلماذا اختَصَّت كلٌّ فاصلة بموضعها ؟ وهل تقدَّم على كل فاصلة ما يوجب اختصاصها بما تقدمها دون غيره ؟ .

جعل الله تعالى الصلة بين الجنسين – الرجل والمرأة – والمشاعر المختلفة بين الطرفين ، وما يكون بينهما من عواطف ومشاعر ، جعل الله هذه الصلة سكنا للنفس ، وراحة للجسم والقلب ، واستقرارا للحياة ، واطمئنانا للطرفين على السواء .

(١) انظر فى هذه الآية ، درة التنزيل ٣٦٩ ، الجواهر فى تفسير القرآن جـ ١/١٥٢ .

فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية ، تعتمد عليها المرأة فى ترك أبويها وإخوتها ، وبقيَّة أهلها ، والرضا بالاتصال برجل غريب عنها ، تساهمه السراء والضراء .

هذه المرأةُ تَقْبل بالانفصال عن أهلها ، وذوى الغَيْرةِ عليها لأجل الاتصال بالغريب ، تكون زوجا له ، ويكون زوجا لها ، يسكن إليها ، وتسكن إليه ، ويكون بينهما من المودة والرحمة أقوى ما يكون بين ذوِى القُرْبى .

فالمرأة لا تَقْدِم على الزوج ، وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها ، إلا وهى واثقةٌ بأن تكون صلتُها به أقوى من كل صلة ، وعيشتُها معه أهنأ من كل عيشة .

فقد خلق لكم من جنسكم وشكلكم نساء ، وهذا أدعى إلى الألفة والمحبة ، لوجود المشاكلة ، كما جعلها على حالٍ تُعظمُ المسرةُ بها ، ويطمئن القلب إليها ، وقد خلق كُلاًّ من الجنسين على نحو يجعلهُ موافقا للآخر ، ملبِّياً لحاجته الفطرية .

وفى قوله : ﴿ وجَعَل بيْنَكم مودَّةً ورحمةً ﴾ آيةٌ أخرى من آيات الزوجين ، تتجلَّى فى رجل اقترن بامرأة ليست من ذوى قراباته ، ولا من بلده أو معارفه ، وقد تكون من قُطر غير قُطره ، ولا يمضى زمنٌ حتى يكونَ بين الزوجين من أواصر المودة ، ووشائج الرحمة ، ما يجعل كلَّ واحد منهما كالجزء من الآخر ، وقد تنسى المرأةُ بذلك الازدواج أهلها وأبويها ، وليس ذلك كفراناً لجميل الأهل ، أو قطْعاً لرحم الأبَويْن ، وإنما هو مظهرٌ من مظاهر تقليب الله تعالى للقلوب ، وتصريفه للنفوس ، فبدَّل ما كان بين

النفسين قبل الزواج من وحَشةٍ إلى أنس ، ومن بُعدٍ إلى قُربْ ، حتى تعمَر الدنيا ، وتنتظم الحياة .

فالتفكير فى ذلك يؤدى إلى العلم بقادر عليم ، وصانعٍ حكيم ، وواحدٍ قديم ، لا يقدُر أحد كقدرته ، ولا يعرفُ حكيم حَدًّا لحكمته ، فحثنا الله تعالى على التفكر فى هذا كلِّه ، ولذلك كانت الفاصلة ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ .

(ب) ﴿ومن آياتِه خَلْقُ السمواتِ والأَرضِ واختلافُ أَلْسِنَتِكم وألوانِكم﴾ .

فما أحد تظلُّه السماء ، أو تقلُّه الأرض إلا وهو يعلمُ اختصاصَه تعالى بخلق السموات والأرض . وأما اختلاف الألسنة : فالمرادُ أن آلَةَ الكلامِ متقاربة ، وأجناسَ الأصواتِ والنغم مختلفةٌ ، حتى إننا نلاحظُ أن كل واحدٍ من الناطقين مختصا بلطيفة من الله فى صوته ، وفى جَرْسِ لسانه ، لا يخفى بها على من عَرَفه ، إذا سمع كلامَه ، والمستمعُ يميِّزُ بينه وبين من سواه قبل أن يراه ، كما أننا لا نرى اثنين فى هذا الزمن الطويل والعَدَدِ الكثير ، يتشابه صوتاهما ، ويلتبسُ كلاهما ، فلا نكاد نَسمع منْطِقيْن يتفقان فى همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حِدَّة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة ، ولالُكْنة ، ولا نظمٍ ، ولا أسلوبٍ ، وغير ذلك من صفات النطقِ وأحواله .

وأما اختلافُ الألوان : فليس القصدُ الاختلاف فى السواد والبياض ، والسمرة والحمرة ، والأُدْمة والصفرة ، ليس المرادُ هذا الاختلاف فقط .

وإنما المراد أيضا اختصاصُ كلٍّ واحدٍ من الناس بخلقة ، وانفراد بصورة ، فقدرةُ الله تعالى جعلتْ كلَّ فرد على لون ونوع من التصوير يتميزُ

به عن بقية أمثاله ، حتى لا يلتبسَ بواحد من أشكاله ، فلا تكاد تجدُ فى بلدٍ تحوى من لا يُحَصرُ بعدد اثنين يتشهابهان تشابُه لَبْسٍ ، بل كل مخصوص بخصوصية فى وجهه يُعرَف بها من غيره .

فالناسُ كلُّهم نُموذَج واحد من ناحية التكوين : رأسٌ ، وجسم وأطراف ، ولحم ودم ، وعظام وأعصاب ، وعينان وأذنان ، وفمٌ ولسان ، وخلايا حية ، وتركيبٌ متشابهٌ فى الشكل والمادة ، ولكن أين التشابهُ فى السمات والشيات ؟ ثم أين التشابُهُ فى الطباع والاستعدادات ؟ إن الفارقَ بين إنسان وإنسان – على هذا التشابه – ليبلغُ أحيانا أبعدَ ما بين السماء والأرض .

ويروى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إنى أتعجب من أمر الشِّطْرنج ، فإن رقعتَه ذِراعٌ فى ذراع ، ولو لعب الإنسانُ ألفَ مرةَ لم يتَّفِقْ مرتان على وجه واحد .

فقال عمر بن الخطاب : هنا ما هو أعجب من ذلك ، وهو أن مقدار الوجْه شبر فى شبر ، ثم إن مواضعَ الأعضاءِ التى فيه كالحاجبين ، والعينين ، والأنف ، والفم ، لا يتغيرُ ألبتة ، ثم إنك لا ترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة .

فهذا الحشد الهائل من الأفلاك والنجوم والكواكب ، واختلاف الألسنة والألوان من بنى الإنسان ، لا يرى هذه الآيات الكبار إلا الذين يعلمون ، ولذلك ختمت هذه الآية بهذه الفاصلة ﴿ إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

(جـ) ﴿ومن آياتِه مَنَامُكم بالليل والنهارِ ، وابْتِغَاؤكم مِنْ فَضْله﴾ .

المعنى فى هذه الآية من باب « لف الخبرين » والمعنى : « ومن آياته منامكم بالليل ، وابتغاؤكم من فضله بالنهار » - كما جاء فى الآية قبله :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

[القصص ٧٣]

أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار .

والنوم عجيبةٌ من فعل الله تعالى ، لا يقدرُ الإنسانُ على اجتلابه إذا امتَنَع ، ولا على دِفاعه إذا وَرَد ، ثم إنه بالنهار لابدَّ له من تصرفٍ لمعاش ، وطلبِ قوتٍ وطعام ، به قِوام الأجسام .

ولما كان [النوم والسعى] سكونا وحركة ، ويدركان بالسمع ، كان من المناسب أن تُختَم الآية بالفاصلة ﴿إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾ - كما أن فى هذه الفاصلة إشارةً إلى ظهور هذا الأمر ، بحيث يكفى فيه مجرد السماع لمن له فهمٌ أو بصيرة ، ولا يحتاجُ إلى مشاهدةٍ ، وإن كان مشاهَداً .

(د) ﴿ومنْ آياتِه يُريكم البرْقَ خَوْفاً وطمَعاً ، ويُنَزِّلُ من السماءِ ماءً فيحُيِى به الأرضَ بعد مَوْتها﴾ . فى هذه الآية تنبيهُ المشركين على إمكانية البعث والنشورِ بعد الموت ، عن طريق إلفهم هذا العمل المتكرر والمشاهدِ أمام أعينهم ، فالتغيراتُ اليومية والتى يُشاهدونها ، والتى تَنْشَأ عن نزول المطر ، فتحيا الأرضُ بعد همودها ، وتَخْضرُّ بعد اغبرارها ، فمن يقدر على ذلك ، فهو قادر على إحياء الموتى من القبور ، لكنهم يغفلون عن

هذا ، لذلك كان من المناسب ختامُ الآية ﴿ إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ ، فهم لا يعقلون عن هذا الفعل المشاهد المحسوس مِثْله من البعث والنشور فى الآخرة .

وللتشابه فى الغرض ، والتناسبِ فى المعنى ختمت بمثل هذه الفاصلة آية العنكبوت فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت ٦٣]

فلما تشابهت المقدمات ، وتناسب التمهيد فى كل من الآيتين ، تشابهت الخواتيم ، واتحدت الفواصل .

٣ – ويقررُ الله تعالى المشركين بأمور يسلمون بها ، ولا يقدرون على استبعادها أو إنكارها ، ويجعلُ ذلك تمهيداً إلى التسليم بأمر البعث ، والاعترافِ بمواقف الحساب والحشر ، فيقول : (١)

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون ٨٤ – ٨٩]

---

(١) درة التنزيل ٣١٨ ، فى ظلال القرآن .

فهذه ثلاث آيات ختمت بثلاث فواصل ، وكلها بعد جملة واحدة « سيقولُون لِلّه » ، فلماذا اختصَّت كلُّ فاصلةٍ بموضعها ، وهل تَقدم على كل فاصلة ما يوجب اختصاصَها بما تقدمها دون غيره ؟ .

(أ) ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

هذه الآية جاءت تعقيبا على إنكارهم البعث فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

[المؤمنون ٨٢]

واتصلت هذه بها ، فأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يسألهم . لمن الأرض ومن فيها ؟ فإنهم يقرون أن جميع ذلك لخالقها ، ومع . إقرارهم بذلك ، فهم ينكرون البعث ، وهذا مما يدل على اضطرابهم فى العقيدة ، فهم لا ينكرون الله تعالى ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهةً أخرى ، يعبدونها لتقرِّبهُم إلى الله زُلفى ، فهم مع اعترافهم بذلك لا يذكرون هذه الحقيقة ، ويتوجهون بالعبادة لغير الله تعالى ، ولذلك كان من المناسب أن تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى ، أنكم بقولكم هذا تضطربون فى عقيدتكم ، وتتناقضون فى أمور دينكم .

(ب) ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾

معنى الآية : من الذى به قِوام السموات السبع والعرش العظيم ، ولا تَستغنى عنه ، وهذه الأشياء ، من أكبر ما يُرى من خلق الله سبحانه ، فمن أقررتم له بملك السموات والأرض والعرش ، لماذا لا تجتنبون معصيته ،

ولا تتقون عقوبته ، ولا تخافون رب هذه الطباق السبع ، وتُشركون معه أصناما مَهينة ؟ فأنتم أحوجُ إلى أن تتقوا بطاعته من موجبِ عقابه ، ولهذا كانت الفاصلة : ﴿ أفلا تتقون ﴾ فكانت لائقة بموضعها ، حالَّة فى مكانها .

(جـ) ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾

من الذى يُجير بقوته من يشاء ، فلا ينالُه أحد ، ولا يملكُ أحد أن يجير عليه ، ويُنقِذُ من يريدُه بسوء من عباده ؟ وهذا أعظمُ مُلْكٍ وأبلغِه ، وهم يقرون بذلك ويعترفون به ، فلماذا ينصرفون عن عبادة الله تعالى ، وما لعقولهم تنحرف كالذى مسّه السحر؟ ، ولهذا كانت مناسبةُ الفاصلة ﴿ فأنى تسحرون ﴾ أى من أين يأتيكم ما يَغْلب على عقولكم ؟ فيخيل لكم الباطل إلها حقًّا ، فكانت الفاصلة بذلك قارة فى مكانها .

* * *

٤ – ويقول تعالى مذكرا للمشركين بأمر البعث والنشور : (١)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت ٦٣]

---

(١) البرهان جـ ٨٩/١ ، درة التنزيل ٣٦٠ .

ويقول أيضا : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان ٢٥]

فهاتان آيتان من سورتين مختلفتين لكنَّ موضوعَهما واحد ، وقد اتفقتا فى أكثر من جملة ، وجاءت الفاصلة فى الآية الأولى ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ ، وفى الثانية ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . فلماذا اختلفت الفاصلتان ، واختصت كلٌّ منهما بما اختصَّتْ به ؟

المخاطبون – وهم المشركون – والموجَّهُ إليهم السؤال ، يقرون بأن الله تعالى هو الذى يحيى الأرض بعد همودها ، ويخضِّرها بعد اغبرارها ، ومن يقدر على ذلك فهو قادر على إحياء الموتى وبَعْثهم من قبورهم ، لكنَّهم لغفلتهم لا يعقلون عن هذا الفعلِ المشاهدِ المحسوس ما يماثلُه تماماً من البعث والنشور ، لذلك كان من المناسب ختامُ الآية بالفاصلة : ﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

أما الآية الثانية ، فالكفارُ يعلمون بأن الله وحده خالقُ السموات والأرض ، ومع علمهم هذا ، يشركون مَعَهُ آلهةً أخرى ، فكأنهم لا يعلمون ، وذلك أنهم إذا عبدوا الأصنام العبادة التى تَحِقُّ لمن خلق السموات والأرض – بإقرارهم – فكأنهم لم يعلموا ما أقروا به ، لذلك كان من المناسب ، أن تختم الآية بالفاصلة : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

* * *

٥ – ويقول تعالى فى هذا المعنى نفسه :(١) ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية ٣ – ٥]

فهذه ثلاث آيات من سورة واحدة فى موضوع واحد – إذ الكل فى تنبيه المشركين إلى قدرة الله تعالى على البعث والنشور – وقد خُتمت بفواصل مختلفة – فما الفائدة فى اختصاص كل آية بهذه الفاصلة دون غيرها ؟

فى خلق السموات والأرض آيات ، فلا شيءَ أعظمُ فى الموجودات منها ، فاتساقُ النجوم فيها ، وتسخيرُها على انتظام مما يدل على مدبِّرها ، ثم وقوفُها مع عِظَمِها ، وثِقَل جِرْمِها بغير دعامة من تحتها ، ولا علاقة من فوقها تدل على قدرة قادر لا يُشبهُهُ قادر ، فمن دقَّق النظر فى ذلك ، وفى بقيَّة ما فيها من آيات أُخَر أدَّاه ذلك إلى الإيمان بالله تعالى ، لذلك ناسب ختامُ هذه الآية بقوله : ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ .

وخص المؤمنين بالانتفاع بهذه الآيات ، وإن كانت منصوبة لهم ولغيرهم ، لأن غيرهم لما لم ينتفعوا بها صارت كأنها لم تكن لهم آياتٌ .

﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة ﴾ تلك الخلائق التى تدب على الأرض أنواعا وأجناسا لا يحصيها إلا الله ، فالنسور عمرها مديد ، ولكنها

---

(١) راجع فى هذه الآيات درة التنزيل ٤٣٦ ، فى ظلال القرآن .

فى مقابل ذلك قليلةُ الفراخ بالقياس إلى العصافير مثلا – ولنا أن نتصور كيف يكون الأمرُ لو كان للنسور نَسْلٌ كالعصافير؟ إنها كانت تقضى على جميع الطيور ، والأُسود فى عالم الحيوان كاسِرةٌ ، فكيف لو كانت تنسِل كالظباءِ والشياه ؟ إنها ما كانت تبقى على لحم ولا غذاء ، لكن الله تعالى يجعل إنتاجَه محدوداً ، بينما يُكثِر من إنتاج ذواتِ اللحوم كالشياه مثلا – والذبابةُ تبيض فى الدورة الواحدة مئات الألوف ، وفى مقابل ذلك لا تعيش إلا مقدار أسبوعين ، فكيف لو عاشت الذبابةُ الواحدة شهرا ، أو سنة مثلا ؟

فهذه آيات ، من يتدبرها يؤمن بها ، ولذلك جات الفاصلة : ﴿ آيات لقوم يوقنون ﴾ .

﴿ واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق . . . وتصريف الرياح ﴾ .

والرزق من السماء : قد يقصد منه الماء – كما فهم القدماء – ولكن فى الرزق ما هو أوسع من ذلك ، فهذه الأشعة التى تَسْقُط من الشمس على الماء من البحار ، فَتبخره ، ثم يتكاثفُ ، ثم ينزلُ أمطارا ، تجرى منه العيون والأنهار ، فتُحيِي الأرض بعد همودها ، وتخضرُّ الأرض بعد اغبرارها . وتصريف الرياح شمالا أو جنوبا ، ودافئة أو باردة – واختلاف الليل والنهار . . فهذه الظواهر الكونية والتغيرات الحسية من يعقلها ؟ ومن يفهمُها ؟ هم الذين يعقلون لهذا جاءت الفاصلة ﴿آياتٌ لقوم يعقلون﴾ فيعقلون من إحياء الأرض بالمطر ، حتى تكتسى بالنبات والشجر ، أنه يحيى العظام وهى رميم ، يحييها الذى أنشاها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم .

٦ – وينذرُ الله تعالى المشركين إذا لم يكونوا فى عبادته ، ويحذِّرهُم من التمرد والخروج على طاعته ، ويُخوِّفُهم أن يَخْسِف بهم الأرض كقوم قارون ، أو يرميهم بالحصباء كقوم لوط ، أو يُغْرِقَهم فى البحر ، ثم لا يجدوا ناصرا لهم ولا مدافعا ، أوْ مَنْ يجْرُؤُ على مطالبته بما فعل بهم ، فيقول :[1]

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾

[الإسراء ٦٨ ، ٦٩]

ويقول بعد ذلك – يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

[الإسراء ٧٣ – ٧٥]

ويقول بعد ذلك : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٦]

---

(١) انظر فى هذه الآيات درة التنزيل ٢٧٥ .

فهذه أربع آيات ، اثنتان متتابعتان ، والثالثة بعدهما بآيات ، والرابعةُ متأخرةٌ عن الجميع ، وفواصلها كلُّها تكادُ تتفقُ فى الألفاظ ، فلماذا اختَصَّت خواتمُ هذه الآى بما اختَصَّت به ؟ ، وهل كان يجوز أن تكون هذه مكان تلك ، وتلك مكان هذه ؟ .

(أ) الآية الأولى وقعت بعد قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء ٦٧]

فهى خطابٌ لمـــن ينجيهـــم الله من ضُر البحـــر ، ويُسْلِمُهم إلى البَرِّ ، فيُعرضونَ عن ذكر ما كانوا فيه من المخافة عند الأمن ، ويَكفُرُون بما أُنعم عليهم من النجاة ، فقال : الذى خفتموه من عذاب الله فى البحر ، لا تأمنونَهُ فى البر ، فالله لا يُعْجزُه الآن أن يخسف بكم الأرض ، أو يرسلَ عليكم حاصِبا ، ثم لا تجدوا من يقوم مقامَكم ويَعصِمُكم مما يريد إنزالَه بكم .

وهذا أولُ ما يَطلبه من أشرف على هَلَكة ليُنقل إلى نجاة ، إذ الوكيلُ هو الذى يُلْجَأُ إليه فى دفع الضُّر ، وعند وقوع الهلكة ، ولذلك كانت الفاصلة ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ .

(ب) وأما قوله : ﴿ أم أمنتُم أنْ يعيدَكم فيه تارةً أخرى ﴾ يعنى يغرقكم فى البحر بسبب كفركم ، ثم لا تجدوا من يتبعنا إذا أهلكناكم بمطالبةٍ بدمائكم ، أو إنكارِ ما أنزلناهُ بكم .

والعادة أنه إذا لم يُغْن الوكيل فى دفع الضُّر ، وإزاحة الهلكة ، جاء بعده من يتبع ذلك بإنكارٍ أو انتصار ، وهذا أيضا مما لا يجدونه عند إرادة الله تعالى لهم بالسوء ، ولذلك جاءت الفاصلة . ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ .

(جـ)وأما قوله للنبى – صلى الله عليه وسلم : ﴿ إذًا لأَذقْنَاك ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المَاتَ ﴾ .

فقد روى أنهم قالوا للرسول – صلى الله عليه وسلم : اطْرُدْ عنك سِقاطَ الناس ، ومواليهم ، والذين رائحتُهم رائحةُ الضأن لأنهم كانوا يلبسُون الصوف – إن كنتَ قد أُرسلت إلينا لتجلس معنا ، ونسمع منك .

فهمَّ أن يفعل،إذ فى ذلك ما يستدعى به إسلامَهم ، فنزل هذا الوعيد ، لأن الله أمره بغير ذلك فى قوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام ٥٥] ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وإنْ كادُوا ليَفْتِنُونَكَ عن الذى أَوْحَيْنَا إليك لِتَفْتَرِىَ علينا غَيْرَهُ ﴾

وقيل : إنَّ المشركين قالوا له : لا نتركُكَ تستلمُ الحجرَ الأسود حتى تَلُمَّ بآلهتنا ، فقال فى نفسه ما علىّ أن أفعل ذلك ، والله يعلمُ ما فى نفسى ، فأتمكن من استلام الحجر الأسود .

وكاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يركنَ إليهم ويَميلَ إلى طلبهم ، لشدة احتيالهم فى ذلك،وصريح إلحاحهم،ولكنَّ الله عصمه،وثبته على الحق،فلم يركنْ ولا قاربَ الركون – وهو صريح القرآن : ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ .

ولو ركن إلى قولهم لأذاقه الله ضِعْفَىْ ما يُعذِّبُ به غيَره فى الدنيا والآخرة ، ثم لا يجدُ من يمنعُ عنه ما يريدُ الله تعالى إحلاله به – ولهذا جاءت الفاصلة : ﴿ ثم لا تَجِدُ لَكَ علْيَنا نَصِيراً ﴾ .

(د) ﴿ولَئِنْ شِئْنَا لَنذهبَنَّ بالذى أوْحَيْنَا إليْكَ ﴾ .

وقد تكون هذه الآية مشتركة مع سابقتها فى السبب ، والمعنى لو شاء الله تعالى لأنساك القرآن ، ومحا من القلوب والكتب ذكره ، ثم لا تجد من يتوكّلُ لك به ، ويتعهدُ برد شيء إليك ، ولذلك كانت الفاصلة : ﴿ ثم لا تجدُ لَكَ به عَلْيَنا وكِيلاً ﴾ .

وعلى هذا فقد تبين أن كل فاصلة فى هذه الآيات واقعة موقعها ، ولا يصلح سواها فى مكانها .

* * *

٧ – وينزه الله تعالى نفسه عن أن يُدْرِكَه أحد ، أو يحيطَ بصفات كماله مخلوق ، فيصفُ نفسه بنهاية اللطف والشفافية ، حتى إن الأبصار لا يمكنُ أن تدركَه ، بينما هو يحيطُ بكل شيء علما ، فيقول :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

[الأنعام ١٠٣]

فالإدراك : هو الرؤية على سبيل الإحاطة والشمول بجوانب المرئى ، والرؤية المكيَّفة بكيفية الإحاطة ، أخصُّ من الرؤية المطلقة ، ولا يلزم من نفى الرؤية المكيفية بكيفية خاصة نفىُ الرؤية المطلقة ، إذ لا يلزم من نفى الأخص نفى الأعم ، ولهذا يصح أن يقال : رأيته وما أدركه بصرى ؛ وما

أحاط به من كل جوانبه ، ولا يصح عكسه ، فلا يقال : أدركته وما رأيته .

واللطيف : هو العليم بالغوامض والدقائق من المعانى أو الحقائق المستورة – كالهواء – مثلا – ولذا يقال للحاذق فى صنعته : لطيف ، كذلك هو ضِد للكثيف الذى يُدرَك بالحاسة .

وهنا يأتى السؤال – لماذا جاءت الفاصلة على هذه الصيغة ؟(١)

لما قدم الله تعالى نفى إدراك الأبصار عطف على ذلك قوله : وهو اللطيف ، وقدَّمَ [اللطيف] عند الفاصلة . لأنه – سبحانه – أراد أن يخاطِبَ السامعَ بما يفهم ، إذ العادة أن كلَّ لطيفٍ لا تُدرِكه الأبصار . ألا ترى أن حاسة البصر لا تُدْرِكُ إلا اللون من كل متلوِّن ، والكوْن من كلِّ متكوِّن ؟ فالأبصارُ إنما تُدْرِك المجسماتِ والمركبات ، ولهذا لما قال تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : « وهو اللطيف » ، ولما قال : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ قال ﴿ الخبير﴾ .

ورُجِّح لفظُ [الخبير] على لفظ [البصير] – لما فى لفظ [الخبير] من الزيادة على لفظ [الإبصار ، والإدراك] إذ ليس كل من أبصر شيئا أو أدركه كان خبيرا به ، حيث إن المبصر لِلشىء أو المدرك له ، قد يبصرُه أو يدركهُ ليخبره ، ولذلك فقد خصصَّ الله (سبحانه) ذاته بصفة الكمال ، إذ هو يُدْرِك الشىء مع الخبرة به .

ولو جاء الكلام : [لا تبصره الأبصار ، وهو يبصر الأبصار] ، لم تكن لفظتا [اللطيف والخبير] مناسبتين لما قبلها .

---

(١) البرهان جـ ١/٨٠ .

فلهذا كانت هذه الفاصلةُ متمكنة فى مكانها ، حالَّةً فى موقعها ، ولو غيرت لاختل المعنى ، وعُمِّى المراد .

٨ – ويكذِّب الله تعالى المشركين حينما وصفوا القرآن بالشعر والكِهانة ، فيقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة ٤٠ – ٤٢]

فلماذا عقَّب نفى الشعر بالفاصلة ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ ، ونفى الكِهانة بالفاصلة ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ ؟

السبب فى ذلك : (١) أن مخالفة القرآنِ لنظمِ الشعر واضحةٌ ، لا تَخْفَى على أحد ، فقولُ من قال إنه شعر : كفر وعناد محض ، فناسب ذلك ختمه بـ ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ .

وذلك أن من نسب النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى الشعر فهو جاحدٌ كافر ، لأنه يعلم أن القرآن الكريم ليس بشعر ، لا فى أوزان آياته ، ولا فى تشاكل مقاطعه ، إذ منه آيةٌ طويلة ، وأخرى إلى جانبها قصيرة ، كآية الدَّين وما قبلها (٢) ، وأما اختلاف المقاطع ، فهو غير خاف عن العرب شاعرها ومفحمِها أنه ليس بشعر ، فمن نسبه إلى أنه شاعر ، فهو لقلة إيمانه ، ولذلك كانت الفاصلة ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ .

وأما من قال : إنه كاهن ، فلأن كلام الكهنة نثرٌ غير نظم ، فمن قال : إنه ككلام الكهان ، فإنه ذاهل عن تذكُّر ما بُنى عليه كلامهم من

(١) الإتقان جـ ١٠٢/٢ ، درة التنزيل ٢٩٥ .

(٢) البقرة آيتى ٢٨١ ، ٢٨٢ .

السجع الذى يُتْبِعون به معانىَ ألفاظهم ، وحَقٌّ اللفظ فى البلاغة أن يكون تابعا للمعنى ، وهو ما عليه القرآن – فكل من القرآن وسجع الكهان نثرٌ ، والتفرقة بينهما تحتاج إلى تدبر وتذكر ، إذا المخالفة بينهما واضحةٌ وضوح الشِّعرِ والقرآن ، وإنما تحتاج إلى تذكر ما فى القرآن الكريم من الفصاحة والبلاغة ، والبدائع والمعانى الأنيقة ، ولذلك حسن ختمه بالفاصلة ﴿ قليلا مّا تذكرون ﴾ .

٩ – ويذكِّرُ الله تعالى المشركين بما فى تعاقب الليل والنهار من نعم جليلة ، وفوائد عظيمة حتى يعودوا إلى رشدهم ، وينصرفوا إلى عبادة ربهم ، فلو تتابع الليلُ ما وجدوا وقتا لطلب المعيشة ، والضربِ فى الأرض ، ولو تتابع النهارُ ما وجدوا وقتا يستريحون فيه من التعب ، فكان من رحمته لعباده ولطفه بهم أن جعل لهم الليلَ والنهار ، يقول تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[القصص ٧١ ، ٧٢]

فهاتان آيتان وكل منهما مختومة بفاصلة ، وتكاد تتفقُ جميع ألفاظهما ، فلماذا تختلف الفاصلتان ؟

فى الآية الأولى : لفظ [الليل] وهو ظرفٌ مظلم ، لا ينفذُ فيه البَصَر ، فلو جعل الله تعالى هذا الليلَ سرمدا ، فيكون الزمنُ ليلا ولا موجودَ سواه ، فاقتضت البلاغةُ ، أن تكون الفاصلةُ ﴿ أفلا تسمعون ﴾ للمناسبة الكاملة

بين [السماع] – فى الفاصلة ، وبين [الليل] قبلها – وهو الظرف المظلم الذى يصلح للاستماع ، ولا يصلح للإبصار.

أما الآية الثانية : ففيها لفظُ [النهار] وهو ظرف مضىء ، ينفذُ فيه البصر ، فلو جعل الله تعالى هذا النهار سرمدا ، فيكون الزمن نهارا ولا موجود سواه ، فاقتضت البلاغةُ أن تكون الفاصلةُ « أفلا تبصرون » للمناسبة الكاملةُ بين [تبصرون] فى الفاصلة ، وبين [النهار] قبلها – وهو الظرف المضىء الذى يصلح للإبصار ، ولا يصلح للاستماع .(1)

* * *

١٠ – وقد كان العرب المعاصرين للرسول – صلى الله عليه وسلم – يمشون فى مساكن عاد وثمود ، ويَرون الآثار الباقية من قرى قَوْمِ لوط ، فكان القرانُ الكريم يستنكر أن تكون مصارعُ هذه الأمم يسمعون عنها ، وهى معروضةٌ عليهم ، ولا تَتَوقَّى مثلَ هذا المصير ، فقال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

وبعد هذا المشهد الذى سمعوه ، والمعروض عليهم . وما يرى فيه من آثار البِلى والدُّثور ، والذى يوحى بالرعب والفزع ، يأتى بمشهد آخر فى مجال الحياة والإنماء ، فهذه الأرض اليابسة التى لا نبات فيها ، يسوق الله تعالى فيها الماء فإذا بها تُخْرِج زرعا مختلفا ألوانه تأكل منه أنعامُهم وأنفسُهم ، فقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة ٢٦ ، ٢٧]

(١) انظر البرهان جـ ٨٢/١ .

فما السبب فى اختلاف الفاصلتين فى الآيتين ؟

السبب فى ذلك[1] : أنه لما قال فى صدر الآية الأولى : ﴿ أو لم يهد لهم ﴾ أى بَيّنَ لهم،وكشف أخبار الأمم السابقة ، وكانت الموعظة فى هذه الآية سمعية جاءت الفاصلة ﴿ أفلا يسمعون ﴾ لأنه تقدم ذكرُ الكتاب ، فيه أخبارُ الأمم السابقة ، وأحوالُ القرون الأولى ، وكلُّها سمعية – فكانت الفاصلة ، قارَّةً فى مكانها ، مستقرةً فى موضعها .

ولما قال فى صدر الآية الثانية ﴿ أو لم يَرَوْا ﴾ وكانت الموعظة مرئية ومشاهدة حيث إنَّ سوق الماء إلى الأرض الجُرز مرئية ، كانت الفاصلة ﴿ أفلا يُبصرون ﴾ ، فحلت الفاصلة محلها ، واستقرت فى مكانها .

* * *

١١ – ويرمى الله بعض المشركين حين عدم الانتفاع بما يتلى عليهم من القرآن بالصمم ، ويضيفُ إلى الصمم فُقْدانَ العقل ، يقول تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم يرميهم مرة أخرى فى الآية التالية عند عدم الاهتداء لما يُشاهَد ويُرى بالعمى ، فيقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾

[يونس ٤٢ ، ٤٣]

فما السبب فى اختلاف هاتين الفاصلتين ؟ وهل يمكن أن توضعَ إحداهما مكانَ الأخرى ؟ .

(١) درة التنزيل ٤٣٦ ، الإتقان جـ ١٠١/٢ .

قَرَن الله تعالى ذِهاب العقلِ بذهاب السمع ، ولم يُقْرِن بذهاب النَّظَر إلا ذهابَ البصر ، وذلك دليلٌ على أن السمعَ مَقدَّمٌ على البصر – فالصممُ فى الآية مرتبطٌ بالعقل ، والعمى مرتبطٌ بالبصر . وقد تضمنت الآية معنيين : معنى مصرَّحٌ به ، ومعنى مشارٌ إليه .

فالمعنى المصرح به : أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يقدرُ على أن يهدى من عَمِى عن الآيات ، بمعنى أنه صرف قلبَه عنها ، فلم ينتفع بسماعِها ورؤيتها .

والمعنى المشار إليه أنه فضَّل السمعَ على البصر ، لأنه جعَل مع الصممِ فُقْدانَ العقل ، ومع العَمَى فُقْدانَ النظر فقط .

وهذا من معجزات القرآن الكريم ، فربْطُه السمع بالعقل ، وإشارتهُ إلى أفضليته على البصر ، كشفَ عنه العلمُ الحديث ، وأقرته المشاهدة .

ذلك أن العَمَى لم يقعُدْ بصاحبه يوما عن بلوغ أسمى المراتب فى النبوغ والعبقرية ، بل لعله من المرشحات لها ، يقول الشاعر :

إذا حَلَّ نورُ اللهِ فى قلبِ عبْدِه
فما فاته من نُورِ عيْنَيْه محْتَقر
لقد طبَّق الدنيا [المعرى] شهرةً
وسارت مسيرَ الشمسِ ذكراه والقمر
وعُمِّر فيها المبصرون كأنَّهم
هوانًا على التَاريخ ليسوا هُم البَشَرُ
فلا تحسَبِ العينَ البصيرةَ مغنمًا
لمن ليس ذا قلبٍ ، وإنْ زَانَها الحَوَرُ

والسمع هى الحاسة الوحيدة التى تؤدى مهمتها من وقت الولادة ، وتظل تؤدى مهمتها حتى عند النوم ، فالعين تُغمِضُ ، لكن الأذنَ تظلُّ مستقبِلةً دائما ، ولهذا لما أراد الله تعالى أن ينيم أصحابَ الكهف مدة طويلة ، وهذا على غير المألوف من قانون البشر ، فهم قوم فى كهف ، والكهفُ فى جبل ، والجبل فى صحراء ، وهناك برقٌ ورعدٌ ، وأصواتٌ وحيوان ، فلما أراد الحق سبحانه أن يمنع هذه المنبهات التى تُخْرِجهم عند النوم ، قال : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف ١١]

وإذا بان بالبرهان والدليل أن ربط السمع بالعقِل ، وأفضليتَه على البصرَ ، مما كشف عنه العلمُ الحديث ، وأقرته المشاهدةَ ، كان من المناسِب أن تُقرنَ كلُّ آيةٍ بفاصلتها ، ولو تراءى لأىٍّ مُخَالفٍ التغييرَ لوقع فى الخطأ ، ولكشفَ ذلك التغايرُ عن فساد الغرض ، وذهابِ المعنى الذى اتفقت عليه العقول ، وأقرته المشاهدة(١) .

* * *

١٢ – ولحكم سامية ، وأسرار إلهية ، اختَصَّ الله تعالى بها ، وَهَب هذا ذكورا ، وذلك إناثا ، وجمع لهؤلاء الذكَور والإناث ، ويجعل من يشاء عقيما ، حكم إلهية ، وأسرارٌ ربانية ، تثير التساؤل ، والاستفهام ، يقول الله تعالى :

---

(١) انظر فى تفضيل السمع على البصر : بدائع الفوائد جـ ٧١/١ ، الإتقان جـ ١٠١/٢ ، الصناعتين ٣٣٧ ، فن الأسجاع جـ ١٤/٢ ألحان الأصيل ٤١ ، ديوان بشار جـ ١٣٦/٤ ، البديع فى أساليب القرآن ١٥٠ ، على مائدة الفكر الإسلامى ٣٣٤ – ٣٤٠ من أسرار التعبير فى القرآن جـ ٢ ، (صفاء الكلمات)

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [الشورى ٤٩ – ٥١]

فلماذا جاء بالفاصلة [عليم قدير] ، بعد ذِكْر الذُّكْرانِ والإناثِ من الأولاد ، والنعمةِ بهما على العباد ، وجاء بالفاصلة « عليٌّ حكيم » ، بعد ذكر أحوالِ الرسل ، وخطابِه لهم ، وطريقةِ الوحي إليهم ؟

نبه الله تعالى العبادَ إلى ما يشاهدون من خلقه لهم ، وأنه يخصُّ من يشاءُ بالإناث ، ويخصُّ من يشاءُ بالذكور ، أو يؤلفهم بناتٍ وبنينَ فيجمعها للواحد ، أو يُعْقِم من يريد حتى لا يكون له نسل ، ولما كان الناس لا ينفكون عن هذه الأحوال ، قال فى فاصلة الآية : « إنه عليم قدير » يعلم الغيب ويطَّلِعُ على العواقب ، فيفعل ما يصلحُ دون ما لا يصلح ، وهو قدير ، لا قدرة كقدرته ، فاختلافُ هذه الأحوال التى ذكرها هو لعلمه بما يصلح منها ، وقدرته على إيجادها ، فاقتضى هذا العملُ المتقدم هذين الوضعين ، فجاءت الفاصلة متمكنةً فى مكانها ، مطمئنةً فى موضعها .

أما قوله فى الفاصلة الثانية : [عليٌّ حكيم] فهو يتعالى عن أن يكون كلامُه لمن يُكلِّم ، ككلام غيره ، ممن يشاهِدُ المتكلِّمُ المكلَّم لَه مشاهدةَ

رؤية ، فهو عَلِيٌّ عن ذلك ، وحكيم فى إبلاغهم كلامَهُ على الوجه الذى ذكره ، والقِسْم الذى قَسَمه .

وعلى هذا فقد أُتْبِعتْ كلُّ آيةٍ بما اقتضته من فاصلة .

فواصل تذكر بنعم الله تعالى :

١٣ – كانت الأمورُ المشاهَدة ، والمرائى المحسوسة ، من وسائل الإيضاح التى استخدمها القرآنُ الكريم ، ليقرِّبَ للناس فكرة البعث ، ويَبْسُط لهم أمر الرجوع إلى الملك الديان ، الذى له الخلقُ والأمر ، هذا الكتابُ المفتوح ، وهذه الطبيعةُ المكشوفة ، مطرٌ ينزلُ من السماء على أرض هامدة ، فإذا بها تنبتُ الزرع ، وتحيى الضَّرع ، زرعٌ ونخيلٌ،ومن كل الثمرات ، صنوانٌ وغيرُ صنوان ، يسقى بماءٍ واحد ، ونفضِّل بعضَها على بعضٍ فى الأُكُل ، وفُلْكٌ تجرى فى البحر بما ينفعُ الناس ، نِعمٌ من الله ، وخيراتٌ لا تنسبُ إلا إليه ، ولا تكونُ إلا منه ، ألا يستحق هذا المنعمُ أن يُعْبَد فى أرضه ؟ ألا يقدرُ على إعادة الخلق وقد بدأه ؟ أيليق أن يُشرَك معه أحدٌ فى الألوهية ؟ ، وفى كل شىء له آية تدلُّ على أنَّه الواحد .

وهذه آياتٌ مكية يستعرضُ اللهُ تعالى فيها علاماتِ القدرة ، وعجائبَ الكون الدالة على عظمته ، وتَرسُمُ المَشَاهِد الحِسِّية ، والمرائى المجسَّمة التى يمرُّ عليها الناسُ ، وهم عنها غافلون . وقد ذُيِّلتْ هذه الآياتُ بفواصل تُقرِّرهم بهذه النعم ، وتُرْشِدهم إلى معرفته ، وطريقة عبادته . يقول تعالى :

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ

﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾

[النحل ٦٥ – ٦٩]

ففى هذه الآيات ثلاث فواصل ، فلماذا خُتمت الأولى بالفاصلة [يسمعون] ، والثانية [يعقلون]، والثالثة [يتفكرون] ؟ .(١)

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

هذه الآية توبيخ لمن أنكر البعث ، واستبعد الحياة الثانية بعد الموت ، إذْ من قَدَر على إخراج النبات من الأرض الهامدة ، واستطاع أن يَسقِىَ الأرض المَيْتةَ بماء السماء فتعودُ حيَّة بنباتها ، قادرٌ على إحياء الناسِ بعْدِ موتهم ، وهذا أمر من الوضوح بمكان حتى إن من يسمَعُه يعترف به ، فهذا أمر لا يحتاج إلى أكثر من السماع ، ولذلك جاءت الفاصلة ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون﴾.

(ب) ﴿ وإنَّ لكم فى الأنعامِ لَعِبْرةً ، نُسقيكُم ممَّا فى بُطونه من بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لبَنًا خالِصًا سائغًا للشَّارِبين ، ومِنْ ثَمراتِ النَّخيل والأعنابِ تتَّخذُون منه سكَرًا ورزْقًا حَسَنًا . . ﴾ .

(١) انظر فى هذه الآيات درة التنزيل ٢٦٦ ، الجواهر فى تفسير القرآن جـ ٣٤/١ للشيخ طنطاوى جوهرى .

فى هذه الآية ظاهرةُ التناسق فى عرض هذه النعم ، فإخراجُ اللبن من بين فرث ودم ، والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، تلك أشربةٌ تخرج من أجسام مخالفة لها فى شكلها – ولما كان الجوُّ جوَّ أشربة ، فقد عَرَض من الأنعام لبَنَها وحده فى هذه الآية تنسيقاً فى الكلام .

فالفرث لا ينعصر منه ما يَسُوغ للشارب ، والدَّمُ أحمر قانٍ ، فيتحول ذلك كلُّه بقدرة الله تعالى لبَناً أبيضَ طيِّباً ، وفى ذلك عبرة لمن يَعْتَبر .

وسأل جماعة من الدهريين الإمامَ الشافعىَّ – رضى الله عنه – : ما الدليل على وجود الصانع ؟

فقال : ورقةُ التوت (نوع من الشجر) طعمُها ، ولونُها ، وريحُها ، وطبعُها ، واحدٌ عندكم ؟

قالوا : نعم .

قال : تأكلها دودةُ القزِّ فتُخرج منها الإبريسم ، ويأكل منها النحل ، فيُخرِج منها العسل ، وتأكلها الشاة ، فيَخْرُج منها البعر ، ويأكلها الظبى فينعقد منها المسك .

فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟

فاستحسنوا منه ذلك ، وأسلموا ، وكانوا سبعة عشر .

فإخراج اللبن من بين الفرث الذى لا ينعصر منه ما يسوغ للشارب ، والدمِ الأحمر القانى ، واستخراجُ ما يُستَلذُّ من العصير من ثمرات النخيل والأعناب ، هذا وذاك يحتاجُ إلى تدبُّرِ عاقلٍ ، ولذلك ختمت الآية بالفاصلة ﴿ إن فى ذلك لآيةً لقوم يعقلون ﴾ .

(ح) ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾

فى مملكة النحل عجائبُ من صنع الله ، من ذلك : طاعتُها لرئيسها ، ثم أشكالُ ما تَبْنى من بيوتها ، التى لو حاول الإنسانُ مثلها بأمثلةٍ يحتذيها ، وتقديرات يقدِّمُها ، لتعذر عليه ، ثم إنها تجنى من أزاهير النبات والأشجار ما هداها إليه إلهامُ الله ، ثم تقذفُ ما يَجْتَمِع فى جوفها عسلا ، ولما كانت هذه العجائبُ تقتضى فكراً بعد فكر ، ونظراً بعد نظر ، خُتِمتْ هذه الآية بقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيةً لقوم يتفكرون ﴾ .

* * *

١٤ – ويقول تعالى فى السورة نفسها ، وللغرض نفسه :(١)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل ١١ – ١٣]

فما السبب فى اختلاف هذه الفواصل ؟

(١) انظر فى هذه الآيات فى ظلال القرآن .

(أ) ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ... ﴾

يذكر اللهُ تعالى نعمَة الماء ، فيُبرز خصيصة الشراب ، فيقول : ﴿ لكم منه شراب ﴾ ثم ينبه إلى خاصية الرعى ، فيقول : ﴿ ومنه شَجَر فيه تسيمون ﴾ وهى المراعى التى تربى فيها السوائم ، ثم يشير إلى الزروع التى يأكل منها الإنسان : الزيتون ، والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات .

فمن الذى يدرك حكمة هذا التدبير ، ومن الذى يربط بين المطر ، وما يتسبب عنه على الأرض من حياة وشجر ، وزرع وثمر ؟ هؤلاء هم أصحابُ النظر ، وأهلُ الفكر ، ولذلك ختمت هذه الآية بالفاصلة : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

أما أهل الغفلة فيمرون على هذه الآية وأمثالِها ، فلا توقظُ تفكيرَهم ، ولا تثيرُ استطلاعَهم .

(ب) ﴿ وسخَّر لكم اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنجومَ مُسخَّراتٍ بأمْرِه ﴾

فهذه العوالم العلوية الشمس والقمر والنجوم وكذلك الليل والنهار ، كل هذه مسخراتٌ لمنفعة الإنسان ، ولنتصور حياةً خاليةً من الليل أو النهار ، أو الشمس – مثلا – فكيف يكون حال الإنسان والحيوان والنبات وكل ذى حياة على ظهر الأرض ؟

من يدرك حكمةَ ذلك التدبير فى هذا الوجود ، وهذَا التناسق فى هذا الكون ؟ يدرك ذلك صاحبُ العقل السليم ، ولذلك ختمت هذه الآية بقوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

(جـ) ﴿ وماذرأ لكم فى الأرْضِ مخْتلفًا ألوانه ﴾ .

ونظرة إلى ما أودع الله فى الأرض من مختلف المعادن التى تقوم عليها حياة البشر ، وإلى تلك الذخائر التى ادخرها للعباد فى باطن الأرض ، وكلما نفد نوع أعقبه الله بآخر .

فمن الذى ينْسَى أن هذه القدرة هى التى حفظت مثل هذه الكنوز ؟ ولذلك عُقِّبَت الآيةُ بالفاصلة : « إن فى ذلك لآية لقوم يذّكرون » .

١٥ – ويعرض الله تعالى مزيدا من وسائل الإيضاح ليقرِّب للمشركين أمر البعث والنشور ، فيحثهم على التأمل والتفكر فى هذا الكون المنشور ، وذلك الكتابِ المفتوح ، فيقول :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد ٣ ، ٤]

هذه من الآيات المكية التى تستعرضُ آيات القدرة وعجائبِ الكون الدالةِ على عظمة الخالق ، وترسمُ المشاهد الكونيةَ التى تلْوِى أعناقَ المكابرين .

فهذه الأرض[1] قد بسطها أمام النظر ، وجعل فيها الثوابت من الجبال ، والجوارِىَ من الأنهار ، وبثَّ فيها من كل الثمرات ، عاقبَ بين الليل والنهار ، هذا يُغْشى ذاك فى انتظام عجيب ، يَقْدُم ليلٌ ، ويُدْبرُ نهار ، « وهُو الذى مَدَّ الأرضَ ، وجَعل فيها رَوَاسِىَ وأنهارًا ، ومِنْ كلِّ الثَّمراتِ ، جعَل فيها زَوْجَيْن اثْنَيْن يُغْشِى الليلَ النهارَ » .

ولما كانت هذه الأمور من العجائب ، وتُثير التأمل فى هذا الكون ، وتدعو إلى التفكير فى هذه القدرة المبدعة ، إلا أن الألفة لهذه الظواهر الكونية ، وكثْرة تَكرارِ هذه المشاهد الحسية مما يهوِّن وقعَها على الحِس ، خُتمت هذه الآية بالفاصلة « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

﴿وفى الأرضِ قِطَعٌ متجَاوِراتٌ وجنَّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ، ونُفَضِّل بعضَها على بعضٍ فى الأُكُل ..﴾.

فى الأرض قطعٌ متعددَة ، منها الخِصب ، ومنها السَّبِخ،ومنها المقفر ، ومنها الصَّخْر ، وكل منها أنواعٌ ودرجات ، وفى الخِصب أنواع من الخيرات (جناتٌ من أعنابٌ ، وزرعٌ ونخيل ، صِنوانٌ وغيرُ صنوان) منه ما هو على عود واحد ، ومنه ما هو على عودين ، أو أكثر ، فى أصل واحد وكله يسقى بماء واحد ، ويفضَّل بعضُها على بعض فى الأكل .

فأى عاقلٍ يُنكر أن حَبَّة الحنظل إذا وُضِعَتْ فى جوف الأرض ، تطلُب من معادِن الأرض ما يُتمم مرارَتَها ، وحَبَّةَ البطيخ لو وضعت بجانبها تأخذ من بين عناصر الأرض ما يزيدُ حلاوتَها ؟ وكلاهما يسقى بماء واحد ، وفى مَنْبت واحد .

(١) انظر الجواهر فى تفسير القرآن جـ ٣٣٤/١، فى ظلال القرآن .

وصدق الشاعر – أبو نُوَاسَ – إذ يقول :

تأمَّلْ رياضَ الأرضِ وانظرْ ... إلى آثارِ ما صَنَع المليكُ
عيونٌ من لُجَيْنٍ شاخصاتٌ ... وأزهارُها كما الذهبِ السَّبيكُ
على قُضبِ الزَّبَرجَدِ شاهداتٌ ... بأنَّ اللهَ ليس له شَرِيكُ

ففى هذه اللفتات التى يُوجَّه إليها القرآن مُثير العقول ، ويُنبه الأفهام ، لذلك ختمت الآية بالفاصلة ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾

١٦ – ويوجه الله عباده إلى جميل صنعته ، وبديع خلقته ، وذلك بعرض نماذج منها ، فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [الحج ٦٣ – ٦٥]

فلماذا اختلفت الفواصل فى هذه الآيات ، وكلها تستعرض آيات القدرة ، وعجائبِ الكون ؟ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

فاخضرار الأرض بسبب ماء السماء أثرٌ من آثار الرحمة لخلقه ، والعطفِ على عباده ، واللطف بهم ، ولذلك ختمت الآية بـ ﴿ إن الله لطيف خبير﴾ .

فجميع ما فى السموات والأرض لله ، لا لحاجة ، بل هو غنى عنها ،

جوادٌ بها ، إذ ليس كل غَنِيٍّ نافعاً بغناه ، إلا إذا كان جوادا منعماً ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعَمُ عليه ، واستحق عليه الحمد ، ولذلك ختمت الآية بالفاصلة ﴿ وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾ .

﴿ ألمْ تَرَ أنَّ الله سخَّر لكم ما فى الأرضِ ، والفُلْكَ تَجْرِى فى البَحْرِ بأمْرِه ، ويُمْسِكُ السماءَ أنْ تَقَعَ على الأرضِ إلَّا بإذْنِه ﴾

فقد عدَّد الله تعالى نعمه على عباده ، من تسخير ما فى الأرض لهم ، وإجراء الفلك فى البحر بهم ، وتسييرهم فى ذلك الهول العظيم ، وجعل السماء فوقهم ، وأمسكها بقدرته عن الوقوع ، كل ذلك حسَّن أن تكون الفاصلة : ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾[1] .

* * *

١٧ – ويخاطب الله تعالى المشركين فى جولة من جَوْلاته للكشف عن نعمه العظيمة ، وتذكيرهم بفضائله المتعددة ، حتى يَحفزهم على الشكر والتقدير، فيذكرهم بالنشأة الأولى، فيقول :

﴿ أفَرأيتُم ما تُمنُونَ ، أنتُم تخلقُونَهَ أمْ نَحنُ الخالِقُون ، نحن قدَّرْنا بينكم المْوتَ وما نحنُ بمَسْبُوقِين ، على أنْ نُبَدِّلَ أمثالَكُم ونُنْشِئكم فيمَا لَا تَعْلَمون ، ولقدْ عَلِمتم النَّشْأَةَ الأُولى ، فلَوْلَا تَذكَّرون ﴾ .

ثم ينبههم إلى ما فى الحرث والزرع من نعم ، فقال : ﴿ أفَرأيْتُم ما تَحْرُثون ... ﴾

---

(١) الجامع الكبير ٢١٦ ، البرهان جـ ٨١/١ .

ثم يوجه أفئدتهم إلى الماء وكيفية نزوله من السماء ، واختصاصه بذلك ، فقال :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وفى النهاية ، يذكرهم بما خلق من النار التى يُورون بها ، ويصلحون عليها خُبزَهم وطَبْخَهم ، فيقول :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

[الواقعة ٥٨ - ٧٣]

وفى هذه الآيات سؤالان :

الأول : لماذا قدم بعض هذه النعم على بعض ، فقدم خَلْقَ الإنسان على نعمة الحرث والزرع ، وقدَّم الماءَ على النار؟

الثانى : لماذا ختم الآيات الأولى الدالة على الخَلْقِ والإيجاد بالفاصلة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ ، والآيات الخاصة بنعمة الماء وإنزالِهِ من المزن ، بالفاصلة ﴿ أفلا تشكرون ﴾؟ وهل يجوز أن تكون إحداهما مكان الأخرى ؟ .

والجواب عن السؤال الأول :

إن الله خَلَق الإنسان من نطفة ، والنعمةُ فى ذلك متقدمةٌ على النعم الثلاثِ الأخرى [الحرث والماء ، والنار] ، لذلك وجب تقديم نعمة الخلق للإنسان عليهم جميعا .

ثم أتى بعده بما به قوام الإنسان من فائدة الحرث ، وهو الطعام الذى لا يستغنى عنه الجسدُ الحىُّ . ثم أتى بعد ذلك بالماء – إذ الطعامُ يحتاجُ فى عجينه إلى الماء .

ثم يأتى فى النهاية بالنار – إذ بها يكون إنضاجُ الطعام ، ومتاعاً للمقوين .

وعلى هذا فقد جاء الترتيب فى الآية على قدر الحاجة ، وكانت النعمةُ الثانيةُ بعد الأولى على الترتيب .

والجواب عن السؤال الثانى :

فالآية الأولى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾

ففى هذه الآيات تنبيه على البعث والنشور ، وتذكيرٌ بأنَّ النشأة الثانية ، والحياة الآخرة ، مثلُ النشأة الأولى ، وفى نظر المتأمل أن النشأة الأولى أصعبُ من النشأة الثانية ، وأنتم قد أقررتم بالنشأة الأولى لقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف ٨٧]

فلو تذكرتم إقراركم هذا للزمكم بالضرورة الإقرار بالنشأة الثانية ، ولذلك كان من المناسب أن تختم هذه الآية بقوله : ﴿ أفلا تذكرون ﴾ .

وأما الفاصلة الثانية ﴿ فلولا تشكرون ﴾ فقد جاءت بعد قوله تعالى :

﴿ أفَرَأَيْتُم الماءَ الذى تَشْرَبون ، أأنتُم أنْزَلتُمُوه من المُزْنِ أمْ نَحْنُ المُنْزِلون ، لو نَشَاء جَعْلَنَاهُ أجَاجًا ، فلَوْلَا تَشْكُرون ﴾

فقد جاءت هذه الفاصلة بعد قوله : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ﴾ أى شديد الملوحة كماء البحر ، فهلا تشكرون الله أن جعله عذبا ، فجاءت الفاصلة متممةً هذا المعنى .[1]

وعلى ذلك فقد كانت كلُّ فاصلةٍ فى محلها ، مستقرة فى مكانها .

* * *

١٨ – ويفصل الله الآيات الكونية الصادرة عن الله ، ليلفت بها الأنظار إلى وجوب توحيده فى العبادة ، وتخصيصه بالألوهية ، ويَهزُّ بها العقلَ البشريَّ ، ويدفعُه إلى التأمل ، ويختمُ الله تعالى كل آية كونية بفاصلة ، تتمم المعنى ، وتبينُ الغرض ، يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ
لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ

(١) انظر فى هذه الآية درة التنزيل ٤٦٧ .

ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام ٩٧ – ٩٩]

فهذه آيات من سورة الأنعام المكية[1] ، والذى رُوى أن أنسَ بنَ مالك – رضى الله عنه – رَوى : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سَدَّ ما بين الخافِقين ، لهم زجل بالتسبيح ، والأرضُ بهم ترتج ، ورسول الله يقول : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله العظيم » .

فهذا الموكب ، وهذا الزجل ، واضحٌ فى هذه السورة ، إذْ فيها كثرةُ المواقفِ ، والمشاهداتِ ، والمرائى ، التى تتدافعُ تدافعَ الموج ، وتتابعُ تَتابُعَ السيل – وهذا موقف من تلك المواقف .

(أ) ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾

فما زال الاهتداء بالنجوم فى متاهات البر والبحر ، هى القاعدة الثابتة ، فقد كانوا وما يزالون ، إلا أن الكشوف العلمية ، قد وسَّعت مداها ، وأكثرت من وسائلها ، وهذه الإشارة مما يدفع إلى البحث عن العلم ، واستخدام هذا العلِم ، وتلك المعرفة ، للوصول إلى تلك المعرفة الكبرى ، ولذلك ختمت هذه الآية بقوله : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

(١) انظر فى هذه الآيات : فى ظلال القرآن ، درة التنزيل ١٢٦ ، الإتقان جـ ١٠٢/٢ ، تفسير القرآن الكريم ٣٧٦ وما بعدها .

ومما يؤكد أن هذه الفاصلة متمكنةٌ فى مكانها ، ومستقرةٌ فى موضعها ، أنها جاءت بعد آيات نبهت على معرفة الله تعالى ، وهى قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام ٩٥ ، ٩٦]

فكل ذلك مما يدفع إلى البحث عن العلم ، والكشفِ عن أسراره ، ولما كان العلم بالله وبوحدانيته هو أشرف معلوم عبر عن الآيات التى نصِبَتْ للدلالة عليه باللفظ الأشرف ، فكان ختامُ الآية : ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

(ب) ﴿ وهو الذى أنشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ﴾

فالذاتُ البشرية هى مبدأ التكاثرُ والتناسل ، فنفس هى مستودَعٌ لهذه النطفة فى صلب الرجل ، ونفسٌ هى مستَقرٌّ لها فى رحم الأنثى ، ثم يأخذ هذا الإنسان فى النمو والتكاثر ، فإذا هو شعوب وقبائل ، وأجناسٌ وألوان ، وذكورٌ وإناث ، وأَعْدادٌ مناسِبةٌ من النوعين – فمن يفقه ذلك ، ويتدبر حكمته – سبحانه – فى هذا ؟ يفهم ذلك صاحبُ الفقه وذو الفهم ، لذلك ختمت الآية بقوله : ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ .

(جـ) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ

ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ ﴾

فمهمةُ الماءِ ظاهرة ، ويعلمُها كلٌّ من عنده إدراكٌ ، البدوىٌّ ، والحضرىٌّ ، والماء يشاركُ فى إخصاب التربة ، وإثمار الثمر ، فيُخْرِج اللهُ به نباتَ كلِّ شىء ، الخَضِر ، والحبِّ المتراكم ، كالسنابل ، والنخيل ذات القِنْوِ الدانى ، والأعنابِ ، والزيتون ، والرمان .

ويوجه الله تعالى إلى ما فى هذا من الجمال الذى يدل على جمال الصنعة ، وتناسق الخِلقة ، فيقول تعالى :

﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾

ولهذا كان ختام الآية : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ فالإيمان هو الذى ينير البصيرة ، ويفتحُ مغاليقَ القلوب ، ويُنَبِّهُ أجهزة الاستقبال فى الجسم إلى نداء الفطرة ، إلى الإيمان بالله خالق كلِّ شىء .

* * *

والقضايا الكبرى التى جاءت فى تضاعيف هذه السورة ، وكُرِّرت فى عبارات مختلفة ، وأساليبَ متعددةٍ ، وهى :

١ – قضية الألوهية وعبادة الله وحده .

٢ – قضيةُ الوحى والرسالةِ .

٣ – قضيةُ البعثِ والجزاء .

فمن تصوير قضية الألوهية ، قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام ١٤]

﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام ١٩]

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام ٥٦]

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأنعام ١٦٢]

ومن تصوير قضية الوحى والرسالة،يقول تعالى :

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام ١٩]

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام ٥٠]

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعام ١٠٦]

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام ١٢٤]

ومن تصوير قضية البعث والنشوز،يقول تعالى :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام٣٢]

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ
يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ [الأنعام ٧٣]

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾
[الأنعام ١٦٤]

فهذه نماذج من تصوير سورة الأنعام للقضايا الثلاث التى دار حديثها حولها ، وهو تصويرٌ يدرك إشاراته وإيحاءاته المتأملُ المتدبرُ فيتفهمُه على وجهه الحق .

وفى أسلوب هذه السورة ما يلفت النظر ، فقد عرضت ما عرضت من قضايا فى أسلوبين بارزين ، لا تكاد تجدهما بتلك الكثرة فى غيرها من السور .

أما الأول : فهى تورد الأدلة المتعلقة بتوحيد الله وتفرُّدِه بالملك والتصرف ، والقدرة والقهر ، فى صورة الأمر المسلم به ، الذى لا يقبل الإنكار أو الجدل ، وتضع لذلك ضمير الغائب ، وتجرى عليه أفعاله وآثار قدرته البارزة للعِيان ، والذى لا يمارى قلبٌ سليمٌ فى أنه مصدرها ومفيضُها ، وصاحبُ الشأن فيها ، كقوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام ٢ ، ٣]

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام ٦١]

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام ٦٠]

وغير ذلك كثير ، ومنها هذه الآيات التى ختمت بهذه الفواصل — التى تحدثنا عنها .

أما الثانى : فهو أسلوب التلقين ، تلقينُ الحجة ، والأمر ، يقذفُها فى وجه الخَصم ، حتى تأخذَ عليه سمْعَه ، وتملك عليه قلبه ، وتحيطَ به من جميع جوانبه ، فلا يستطيعُ التفلتَ منها ، ولايجد بدًّا من الاستسلام لها .

ففى حجج التوحيد والقدرة يقول الله تعالى :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام ١٢]

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام ١٤]

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام ١٥]

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنعام ٤٠]

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الأنعام ٤٦]

وغيرُ هذا كثيرٌ ، وستأتى آياتٌ ختمت بفواصل من هذا الأسلوب التلقينى .

والسر فى مجىء هذه السورة على هذين الأسلوبين : [هو كذا ، وقل كذا] :

هو أنهما من أساليب الحجة القوية التى تدل على قوة المعارضين ، وإسرافِهم فى المعارضة ، وأنهم بحالة تستوجب تلك الشدة التى تستخرج

الحق من نفوسهم ، وتدفعُهم إليه دفعا عن طريق الحجة التى تأخذ بالقلوب .

وقد صدر الأسلوبان فى موقفٍ واحد ، لخَصْمٍ واحد ، بلغ هذا الخَصْم من القوة مبلغا استدعى من القوىِّ القاهر ، الحكيم الخبير ، تزويدَ المهاجم بعُدَّةٍ قوية تتضافر أسلحتُها فى حملة شديدة يقذفُ بها فى معسكر الأعداء ، فتزلزلُ عُمُدَه ، وتُهدُّ من بُنيانه ، فيخضعُ للتسليم بالحق الذى يُدْعَى إليه .

ومن هنا كانت سورة الأنعام،بين السور المكية،ذاتِ شأنٍ فى تركيز الدعوة الإسلامية ، تقرِّرُ حقائقَها ، وتفنِّد شبه المعارضين لها ، واقتضت الحكمة الإلهية ، أن تَنْزِل – مع طولها – جملةً واحدة ، وأن تكون ذات امتيازٍ خاصٍّ لا يُعرف لسواها .

الوصايا العشر وفواصلها الثلاث :

١٩ – هذه الوصايا العشر جاءت فى خاتمة سورة الأنعام بعد أن سبحت السورة سبحا طويلا فى حجاجها القوى ، وبراهينها القطعية ، وكانت هذه الوصايا نتيجةً حتمية لتلك الحجاج والبراهين ، وكان لها وقْعُ النتائج بعد المقدمات ، والمقاصِد بعد الوسائل ، والغايات بعد البدايات ، يقول تعالى : (١)

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

---

(١) انظر فى هذه الآيات ، تفسير القرآن الكريم ٣٩٣ وما بعدها،روح المعانى جـ ٥٦/٨ ، الجواهر فى تفسير القرآن جـ ٢٠/٢ الإتقان جـ ١٠٢/٢ .

إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ
وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ
ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ
أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى
مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم
بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام ١٥١ – ١٥٣]

أطلق العلماءُ على هذه الآيات الثلاث اسم [الوصايا العشر] نظرا لتزييل آياتها الثلاث بقول الله : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ ، وقد رُوى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – أنه قال : « من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات . . » .

ولا نكاد نعرف شيئا من تعاليم القرآن وأحكامه نزل بمثل ما نزلت به هذه الوصايا . فقد بدئت بكلمة [قُلْ] ، وهو من أساليب الأمر وتلقين الحجة . يقْذفُها فى وجه الخَصم حتى تأخذَ عليه سمعَه ، وتملك عليه قلبه ، كما يدُلُّ على نَوعٍ خاصٍّ من العناية ، والاهتمام بالإرشادات التى سيقت بها . مثل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنبياء ٤٢]

﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ ﴾ [الأحزاب ١٦]

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [الكهف ١١٠]

والبدءُ بكلمة [قل] وإن كان كثيرا فى القرآن الكريم ، إلا أن سورة الأنعام تحظى منه بالنصيب الأكبر دون غيرها .

وكلمة [تعالوا] تَتَضَمَّن إرادة تخليص المخاطبين ، ورفعَهم من انحطاطٍ هُمْ فيه ، إلى عُلُوٍّ يُرادُ لهم ، ويُدعَوْن إليه ، ثم إن فيه طلَب المتكلم إقبالَهم عليه ، وانضمامهم تحت لوائه ، وهذا أسلوب يُشْعِر بمعانى العطف الرحمة ، ويُقَرِّب البعيد ، ويؤلِّف النافر .

وفى اقتصار التعبير على كلمة [أَتْلُ] إيحاء قوىٌّ لتقدير المتكلم مكانةَ المخاطبين ، وارتفاع منزلتهم عنده إلى درجة لا تُكلِّفه فى لفت الأنظار إلى ما يقول أكثر من أن يَتْلُوَ عليهم ، وكأنه قدر أن السماع والتنفيذ مما تكفَّلَتْهُ فطرُهم السليمة ، دون حاجةٍ أن يُؤمروا به ، وهذا غايةٌ فى اللطف ، ونهايةٌ فى التكريم ، وتوجيه الخطاب . وتلاوة ما حرَّمه الله : قراءةُ الآيات المشتملةِ على الأشياء المحرمة ، وللآيات فى هذا الإرشاد طريقان :

أحدُهما : أن يُذكرَ المحَرَّمُ مقترنا بأداة النهى والتحريم ، وذلك حيث يكون الضررُ مترتِّبا على فعله ومنه فى الآيات :

﴿ ألا تشركوا به شيئا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تقربوا الفواحش ، ولا تقتلوا النفس ، ولا تقربوا مال اليتيم ﴾

ثانيهما : أن يُذْكَر المحرم بذكر مقابله ، وهو الذى يترتبُ الخيرُ على فعله ، ومنه فى الآيات :

﴿ وبالوالدين إحسانا ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، وإذا قلتم فاعدلوا،وبعهد الله أوفوا ﴾ .

وقد جاءت كل وصية من هذه الوصايا بالطريقة التى تدل على جهة الخير فيها ، فجهةُ الخير فى الأول تركُ المحرمات فلا شرك ولا قتل . . الخ ، فذُكِر منهيا عنها ، وجهةُ الخير فى الثانى فعل ما يقابل المحرم ، الإحسان ، والإيفاء ، والعدل ، فذُكرت مأمورا بها .

الوصيَّة الأولى : ﴿ ألا تشركوا به شيئا ﴾ .

الإشراك بالله : هو أن يتخذ الإنسان لِلَّه – سبحانه – شريكا فيما هو من خصائص الألوهية ، مثلُ الذى يتعلق به الرجاء فى الحصول على المحبوب ، أو دفْعِ المكروه ، فهذه السلطة لِلَّه وحده ، خالقُ المحبوب والمكروه ، وليس منها شىء لأحد سواه ، فلا يصح أن يُدعىَ أو يُتَّجه إلى غيره – سبحانه – بالخوف أو الرجَاء ، وعلى هذا فمن اعتقد أن شيئا من هذه السلطةِ لغير الله فقد أشرك به ، وكان فى الوقت نفسه مؤمنا بالله ، ومن هنا كان الشرك بالله – فى مثل هذه الصورة مقتضيا للإيمان بالله ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

[يوسف ١٠٦]

والشركُ بالله – على هذه الطريقة – غيرُ إنكار الربوبية والألوهية ، الذى يكون القصدُ منه إنكار مبدأ هذه السلطةِ على الإطلاق ، فلا سلطة غيبية وراء هذا الكون ، وأن هذا الكونَ قديمٌ بعناصره الأولى ، وأن سيّره

ونُمُوَّه يكون بتفاعل هذه العناصر ، وليس له مدبِّرٌ حكيم ، ولا مهيمنٌ خبير ، له السلطانُ المطلقُ فى إيجاده ، وفى إبقائه ، وإفنائه .

وإذا كان الشرك بالمعنى الأول – وهو أن يتخذ الإنسانُ شريكا لِله فيما هو من خصائص الألوهية – محرَّماً ، وأكْبَر الكبائر ، كان الثانى – وهو إنكار الربوبية والألوهية – أشدَّ تحريما ، وأكبرَ جُرْما ، وأعظم كُفْراً .

والقرآن الكريم فى أكثر آياتِ التوحيد لم يعرض لهذا النوع الثانى ، لأن جحود الربوبية ، جحودا مطلقا ، ليس من فِطرة الإنسان ولذلك كثيرا ما يحكى القرانُ عن المشركين اعترافهم بالربوبية ، والألوهية ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت ٦٣]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف ٨٧]

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت ٦٥]

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم ٣٣]

ولهذا كانت دعوة الرسل موجهة إلى عبادة الله وحده ، وإلى محاربة الذين أشركوا معه غيره ، فيما هو من خصائص الألوهية ، أما الجحود المطلق ، فليس من فطرة الإنسان .

الوصية الثانية : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ .

وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالإحسان ، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم كما فى الوصية الأولى ﴿ ألا تشركوا ﴾ ، سموا بالإنسان عن أن تُظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ليس من شأنه أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها .

كما أن الواجب يتحقق بفعل الإحسان ، لا بمجرد ترك المحرم – وهو الإساءة – ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ ، ولم يقل : « ولا تسيئوا إلى الوالدين » ، فليس المطلوبُ سلْبَ ضَرَرٍ أو إيذاء ، وإنما المطلوبُ إيجادَ خير أو نفع .

ولفظُ [الإحسان] يتعدى بحرفَىْ [الباء ، وإلى] ، وبينهما فرق واضح ، فالباء : تدل على الإلصاق ، وإلى : تدل على الغاية ، والإلصاق : يفيد اتصالَ الفعل بمدخول الباء ، دون انفصال أو مسافةٍ بينهما – أما الغاية ، فتفيد وصولَ الفعل إلى مدخول [إلى] ولو كان منه على بعد ، أو كان بينهما وساطة ، ولاريب أن الإلصاق فى هذا المقام أبلغ فى تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين ، ومن هنا لم يُعَدّ الإحسانُ بالباء إلا حيث يراد به ذلك التأكيد ، كما فى قوله تعالى حكاية قول يوسف لأبيه وإخوته ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ [يوسف ١٠٠]

ونرى اتصالَ [الباء] بالإحسان فى مقام الوصية بالوالدين قد جاءت فى أربع سور من القرآن: البقرة ٨٣ ، والنساء ٣٦ ، والأنعام ١٥١ ،

والإسراء ٢٣ ، وقد جاء الأمر بالإحسان فى كل هذه السور بصيغة واحدة [وبالوالدين إحسانا] .

ففى هذه السور الأربع عُدِّىَ الإحسان إلى الوالدين بالباء التى تدل على إلصاق الإحسان بهما دون وساطة ولا فَصْل ، وجعل الأمر به بالنسبة لهما تاليا فى الذكر للأمر بعبادة الله وحده ، أو النهى عن الإشراك به ، وفى هذا رفعٌ لمقام الأبوة والأمومة أيُّما رفع .

ولم تقف الوصية بهما عند هذا الحد ، بل جاءت فى آيات أخرى بأسلوب الإيصاء – وهو أن يُعهد إلى الغير بعمل ذى بال – وأسلوبُ الإيصاء يدل على العناية التامة ، والاهتمام البالغ من الموصِى بهذا العمل ، كما يدلُّ على سموِّ مكانةِ العمل ، وعلى أن الموصَى له حَظٌّ يعود عليه من ذلك . ومن هنا كان أسلوبُ الإيصاء أقوى فى البعثِ على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف ، تأمل قوله تعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء ١١]

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة ١٣٣]

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى ١٣]

﴿ ذلكم وَصّاكم به ﴾ وقد ختم بها الوصايا العشر فى سورة الأنعام . أما آيات الوصية بالوالدين التى جاءت بأسلوب التوصية ، فقد جاء ذلك فى سورة العنكبوت(٨) فقال :

﴿ وَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأحقاف ١٥]

وقد عرضتْ آية لقمان والأحقاف جانبا خاصا بالأم أظهرت به ما قاسته فى شأن الأولاد من متاعبِ الحمل والوضع والإرضاع ، وما يتبع ذلك من مشاقّ التغذية والتنظيف والسهر وشدة الاهتمام بهم فى الصحّة والمرض ، حتى لتنسى الأم فى سبيل ذلك نفسها وبيتَها وزوجَها :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان ١٤]

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾
[الأحقاف ١٥]

الوصية الثالثة :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

وقد جاءت هذه الوصية مرة أخرى فى وصايا سورة الإسراء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾
[الإسراء ٣١]

وكان الباعثُ على ارتكاب هذا الخطأ هو أن يتّقى الإنسان غائلة الفقر التى يجلبها الإنفاق على الأولاد ، أو يتقىَ به عار الفاحشة ، أو السبى فى القتال ، أو عار التزوج بزوج هو دونهم فى الشرف والمكانة .

لكن القرآن الكريم قطع على هؤلاء وهمَهم ، وأزال خوفهم ، ولفت أنظارهم إلى أن الرزق بيد الله ، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود ٦]

وقد جاء هذا الضمان الإلهى بالنسبة للأولاد على صورتين مختلفتين ، ففى آية الأنعام هذه،قدم الآباء ، إذ زرقُهم هو ما يَشغلُهم ، فقال : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ وفى آية الإسراء قدم رزق الأبناء إذ هو المتوقَّعُ والأهمُّ عندهم فقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾

وقد نظرت كلُّ آيةٍ منهما إلى حالةٍ من الحالتين ، تدفع كلتاهما الآباء عن قتلِ الأبناء ، فالفقرُ الذى كانوا يتخوفونه إما أن يكون واقعا ، وإما أن يكون متوقعا مرتَقَباً بعد كبر الأولاد ، وشيخوخَةِ الآباء .

وعلاجُ الحالة الأولى ، ما جاء فى قوله : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ فنظرا إلى أن الآباء فى هذه الحالة هم المكلَّفون بالسعى والإنفاق ناسب أن يكون علاجُها تقديمَ رزق الآباء لإفادة أنهم أصحاب العمل ، وبرزقها يُرزق الأولاد ، فقدَّم رزقهم على رزق أبنائهم فقال : ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ .

وكان علاج الحالة الثانية ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ونظرا إلى أن هذه الحالة يكون الآباء قد وصلوا إلى درجة حالة العجز عن الكسب والعمل ، ويكون الأولاد هم المكلفين بالسعى ، وتحصيل الرزق ، ناسب أن يكون علاجُها ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فقدم رزق الأبناء الذين يعملون ، وكأن رِزق الآباءِ فى تلك الحالة من رزق الأبناء .

وفى تغيير الأسلوب على هذا النحو إيحاءٌ بأن رزق الله للإنسان إنما يكون مضمونا إذا كان كاسبا عاملا ، وليست الكَفالةُ مرتبطةً بالرزق ولو من غير عمل أو كسب ، فذلك ليس من سنن الله فى كونه .

الوصية الرابعة :

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾

الفواحش : جمع فاحشة ، وهى اسمٌ لكلِّ ما عظم قبحُه ، واستقرتْ فى نظر العقول بشاعتُه وقد جاءت كلمات [فاحشة ، وفحشاء ، وفواحش] فى كثير من آيات القرآن عامة لا تختص بنوع معين ، أو فعل خاص مما عُرفت شناعتهُ وقبحُه ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ ﴾

[الأحزاب ٣٠]

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبوت ٤٥]

﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

[الأعراف ٣٣]

وعلى هذا فالكلمات ليست خاصةً بالاعتداء على العِرض ، وإن كان قد أريد منها ذلك فى بعض إطلاقاته ، نظراً لشدة قُبحِه ، واستهجان النفوس له ، وليس هذا لأنها خاصةٌ به ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء ٣٢]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء ٢٢]

ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على أن الاعتداء على العرض ، وزواج امرأةِ الأب ، كلاهما فاحشة ، وعلى هذا فالزنا ليس وحده هو الفاحشة .

سرٌّ تعلق النهى بالقرب دون المنهى عنه :

جاء التعبير فى القرآن بتعلق النهى بقربان الفاحشة دون فعلها ، أو الوقوع فيها ، وإن كان هذا هو المقصود ، نظرا إلى أن عمل الفاحشةِ مما تتعلق بها الشهوات ، وتميلُ إليها الأهواء ، فاتجه بالنهى إلى هذه الدوافع نفسها وإلى محاربتها حتى لا تدفع صاحبها إلى الوقوع فيما عظم قبحه ، واستقرت فى نظر العقول بشاعتُه ، ولذلك نجد أن النهى فى القرآن الكريم كثيرا ما يتعلق بالقربان من الشىء دون فعله أو الوقوع فيه ، يقول تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام ١٥١]

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الاعراف ١٩]

﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء ٤٣]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء ٣٢]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الانعام ١٥٢]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة ٢٢٢]

﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة ٢٨]

وبملاحظة هذا الأسلوب فى هذه الآيات ، نجد أن كلَّ منهىٍّ عنه ، وكان من شأنه أن تميلَ إليه النفوس ، وتدفعَ إليه الأهواء ، جاء النهى فيه بـ [لا تقربوا] ، ويكونُ القصد من ذلك التحذيرُ من أن يأخذ ذلك الميلُ فى النفس مكانةً تَصِلُ بها إلى اقترافِ المحرَّم .

أما المحرماتُ التى لم يؤلفْ ميلُ النفوس إليها ، ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهىُ عنها بالفعل نفسه ، لا بالقربان منه ، ومن ذلك فى هذه الآيات : ﴿ ألا تشركوا بالله شيئا ﴾ ، ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ ، ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ – فإن الفعل المنهىَّ عنه وإن كان أشدَّ قبحا ، وأعظم جرما عند الله من فعل الفواحش وأكلِ مال اليتيم ، إلا أنها ليست مما يميلُ إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هى – فى نظر العاقل – على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها ، ولا يَقْدُم عليها إلا وهو كارهٌ لها ، أو فى حكم الكاره .

وكان من آثار هذا الفرق بين ما يتعلق النهى فيه بالقُربان من الفعل ، وما يتعلق فيه بنفى الفعل نفسه ، أن الدنو من المكروه بالتفكير فيه ، ومحاولة فعله ، لا يلزمه أن يصل بالإنسان إلى ارتكابه ، وذلك لعدم ميل النفس بطبعها إليه ، وليس كذلك الدنوّ بالتفكير فيما تشتهيه النفس ، وتميل إليه ، كالفواحش ، وأكل مال اليتيم ، فإن الفعل يتبعه غالبا ، ولا يتخلفُ عنه إلا برادع خاص ، لا يتفق لكثير من الناس ، ولا فى كثير من الأحوال .

ومن هنا يظهر السرّ البلاغى فى مجىء النهى عن الإشراك وأمثاله متعلقا بالفعل نفسه ، ومجىء النهى عن الفواحش والمال ، والزنا . . متعلقا بالقربان منها ، ومن أساس هذه النظرة التى تشبه أن تكون فطرية تستطيع إدراكَ الحكمة فى المغايرة بين أسلوبى النهى فى الجانبين .

الوصية الخامسة :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

وقد تكرر فى القرآن الكريم النهىُ عن قتلها ، فجاء هذا النهى فى الإسراء (٣٣) واتفقت جميعُ الملل والنحل منذ بدء الخليقة على أن قتل النفس عمدا (بغير حق يبرره) جريمةٌ منكرة لا يقرُّها شرع ، ولا يتقبّلُها وضع ، وقد شددت الشريعةُ الإسلاميةُ فى التنفير منها ، والنكير عليها ، وجعلت عقوبتَها الأصلية القصاصَ ، وعقوبةً تبعية وهى — حرمانُ القاتِل من ميراث المقتول إذا كان بينهما سبب للتوارث .

وكان من أصرح وأقوى ما جاء فى حكم قاتل النفس قولهُ تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٩٣]

وقد جاء الوعيد على هذه الجريمة فى هذه الآية مطلقا غيرَ مقيد بتوبة — كما هو الشأن فى بقية الجرائم ، حتى جريمة الكفر — مما يدل على أن توبته غيرُ مقبولة ، كما روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وسواء صح ذلك أو لم يصح ، فحسْبُ القاتل فى عظم جريمته عند الله أن الوعيد عليها جَمَع الخلودَ فى جهنم ، وغضَبَ الله ، ولعنَتَه ، وإعداد العذاب العظيم ، وهو وعيد لم يُر مثلُه فى جريمة أخرى .

وكانت هذه الوصايا الخمس تمهيدا لهذه الفاصلة : ﴿ ذلكم وَصَّاكم به لعلّكُم تَعْقلون ﴾ ، إذ هذه الوصايا إنما يَحملُ على فعلها العقلُ الذى يغلب عليه الهوى ، حيث إن الإشراك بالله سببه عدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته ، وكذلك عقوقُ الوالدين لا يقتضيه عقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الكريم عمل يدفع إليه عدم العقل ، كذلك إتيان الفواحش ، وقتل النفس لغضب أو غيظ .

كما أن هذه الأشياءَ أمورٌ عظام ، والوصية بها من أبلغ الوصايا ، فختمت بما فى الإنسان من أشرف السجايا – وهو العقل – الذى امتاز به الإنسانُ عن بقية الحيوان .

الوصية السادسة :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾

هذه هى الوصية الأولى من الآية الثانية ، من آيات الوصايا العشر فى سورة الأنعام وهى النهى عن قربان مال اليتيم بأى حالة من الحالات غير حالة واحدة وهى التى فيها ما ينفع اليتيم فى الحال ، بالنسبة لنفسه كتعليمه وتربيته ، أو فى المآل كاستثمار ماله فى أى نوع من أنواع التجارة ، أو الصناعة .

وقد تعلق النهى فى هذه الوصية بالقربان من مال اليتيم دون التصرف فيه بما يفسده – وإن كان النهى عن التصرف فيه هو المراد – وذلك نظرا إلى أن المال من الأمور التى تتعلق بها الشهوات ، وتميل إليها النفوس ، فآثر

الله تعالى النهى بالقرب فقال ﴿ولا تقربوا﴾ حتى لا يدفع هذا القربُ صاحبَه إلى الوقوع فى المحرم ومد اليد إلى مال اليتيم بالإفساد .

ولذلك نجد أن النهى فى القرآن الكريم كثيرا ما يتعلق بالقربان من الشيء ، دون فعله ، أو الوقوع فيه ، كما فى قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ ولا تَقْرَبوا الفَواحِشَ ﴾ ، وكما قال فى وصايا الإسراء ﴿ ولا تَقْرَبُوا الزِّنا ﴾ [الإسراء ٣٢]

أما المحرمات التى لم يؤلفْ ميل النفوس إليها ، فإن الغالبَ أن يكون النهىُ عن الفعل نفسه ، لا القرب منه ، كما فى قوله تعالى فى الآية السابقة : ﴿ ألاَّ تُشرِكوا به شيئاً ﴾ . ﴿ ولا تَقْتُلوا أولادَكم مِنْ إمْلاقٍ ﴾ .

الوصية السابعة :

﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾

الوصية السابقة كانت نهيا عن أكل مال اليتيم ، وهو ينشأ عادةً عن استضعافه وعجزه عن المحافظة على ماله ، وقد عُطِفت عليها هذه الوصية ، وهى نهىٌ عن أكل أموال الناس عن طريق المبادلة المالية بنقص الكيل والميزان ، وهذا أمرٌ له شأنه فى الحياة الاجتماعية ، لأنه أكلٌ للمال فى ظلِّ صورةٍ من العدل ، ظاهرُها الكيل والميزان ، وباطنها انتقاص الحقوقِ والخديعةُ فى استلاب الأموال .

وإذا كان السارق بجريمته لا يجد شيئا يستتر به ، فإن منتقصِى الكيل والميزان يرتكبون جرائمهَم باسم المعاملة ، وباسم معيارِ العدالة ، ولذلك كان إيفاءُ الكيل أصلاً من أصول الرسالات السابقة ، فقد أُهلِك قومُ شعيب

– عليه السلام – بسبب التطفيف فى الكيل والميزان ، وذَكَر القرآن ذلك فى سورة الأعراف(٨٥) ، والشعراء (١٨١) ، وهود (٨٤) .

والجار والمجرور [بالقسط] المراد منه : أوفوا الكيل والميزان لا رغبةً ولا رهبة ، وإنما أوفوه بدافع القسط الذى يملك عليكم قلوبكم ، ويصير خُلُقًا لكم ، دون تكلف فى وقت دون وقت .

ولما كانت الدِّقةُ فى الكيل والميزان التى تحقق العدلَ المطلق قد لا تدخلُ تحت قدْرة الإنسان ، رفع اللهُ الحرج فى ذلك ، وذيَّل الوصيةَ بقوله : ﴿ لا نُكَلِّف نَفْساً إلاَّ وُسْعَها ﴾ فهذه الجملة فيها ترخيصٌ فيما لا يملك الإنسانُ ضبطه فى الزيادة أو النقصان ، وعلى هذا فإيفاء الكيل مطلوبٌ بقدر الوُسع والطاقة .

الوصية الثامنة :

﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ﴾

الوصية السابقة كانت إيفاء الكيلِ والوزنِ بالقسط ، وهذا نوع من العدل الذى اهتم به القرآن الكريم ، وهذه الوصية قُصد بها العدلُ بوجه خاص ، وقد ساقه فى عبارة مستقلة ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ .

وقد أمر القرآن الكريم بالعدل عاما ، وخاصا ، طلبه من الشاهد ، والحاكم ، طلبه فى الأسرة ، طلبه فى الزوجات ، طلبه فى الناس جميعا حتى مع الخصومِ والأعداء ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾
[المائدة ٨]

أما قوله تعالى : ﴿ ولَوْ كانَ ذَا قُرْبَى ﴾ فهو أخذ بالإنسان حتى لا يتأثر بصلات القربى فى المحاباة للأقرباء ، والظلم لغيرهم .

الوصية التاسعة : ﴿ وَبعَهْد اللهِ أَوْفُوا ﴾ .

والعهد الذى أخذه الله على الناس جميعا أن يوحدوه ، ولا يشركوا به شيئا ، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه ، وأن يقوموا بما تعاقدوا عليه من ارتباطات والتزامات على أساسٍ من أحكام الله وشرعه ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يٓس ٦٠ ، ٦١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة ١]

﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء ٣٤]

﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾ [الأنعام ١٥٢]

ولما كانت هذه الأمور الأربعةُ المذكورةُ فى هذه الآية خفية غامضة ، لا بُدَّ فيها من الاجتهاد والفكر ، حتى يقفَ على موضع الاعتدال ، ناسب ختامُ هذه الآية بقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

الوصية العاشرة : ﴿ وأنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتقيماً فاتَّبِعُوه ﴾

والصراط المستقيم : هو الطريق الذى لا التواء فيه ولا انحراف ، وهو أقربُ ما يصل به الإنسانُ إلى مقصده دون بُطءٍ أو تعويق ، ولما كان شرعُ الله بهذه المثابة — فى الوصول إلى غايته — أُطْلِق عليه « الصراطُ المستقيم » .

وقد ورد الصراطُ المستقيم كثيرا فى القرآن عنوانا على شرع الله ودينه ، وأُضِيف تارة إلى الله ، كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ وأنَّ هَذا صِراطُ ربِّك مُستقيماً ﴾ [الأنعام ١٢٦] ، وأضيف مرة أخرى إلى الذين التزموه ، وساروا على مقتضاه ، حتى نعموا بفضله ومزاياه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ صِرَاط الَّذِين أنْعَمْتَ عَليْهم ﴾

وفى التعبير عن الصراط المستقيم بضمير الواحد:﴿ وأنّ هَذا صِرَاطى مُسْتَقِيماً ﴾ والتعبير عما سواه بالجمع فى قوله ﴿ ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُل ﴾ إيحاءٌ إلى أن الحق واحد لا تعدُّد فيه ، أما الباطلُ فذو صورٍ شتَّى ، وأنحاء متعددة ، فالحقُّ مصدرُه الله وحده ، والباطلُ مصادرهُ الأهواء ، ومتابعةُ الشهوات والنفوس .

وقد شرح الرسول – صلى الله عليه وسلم – هذه الآية شرحا تصويريا بيده الكريمة فيما يُحدِّث به عبد الله بن مسعود ، قال : خط رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطا بيده ، ثم قال : « هذَا سبيلُ اللهِ مُسْتقيما » ، ثم خط خطوطا عن يمين هذا الخط وعن شماله ، ثم قال : « وهذه السُّبُل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ الآية كلَّها ﴿ وأنّ هَذَا صِراطِى مُسْتقيماً فاتَّبعُوه ، ولَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرقَ بكم عن سَبِيله ﴾ .

وقد ختمت هذه الآية بالفاصلة : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ والتقوى : هى اتقاء النار ، ومن يَتَّبع طريقه ، وينهجْ صراطه ، نجا النجاة الأبدية ، وحصل على السعادة السرمدية .

تلك هى الوصايا العشر التى ذيَّل الله كل آية منها بقوله : ﴿ ذلكم وصاكم به ﴾ ، وقد رَسَمَت هذه الآيات الثلاث طريق السعادة

للبشرية ، وكان لها فى نفوس العرب الجاهليين — فضلا عن الإسلاميين — تأثير كبيرٌ فى طرح عقائدهم القديمة ، واعتناقهم الإسلام ، لِمَا جَمعتْ من أصول الفضائل ، وعُمُدِ الحياة .

روى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال :

لما أمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يعرض نفسه على قبائلِ العرب ، خرج إلى منى ، وأنا وأبو بكر معه ، فوقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على منازل القوم ومضارِبهم ، فسلَّم عليهم ، وردوا السلام ، وكان فى القوم مفروق بنُ عمرو ، وهانئ بنُ قبيصة ، والمثنى بنُ حارثة ، والنعمانُ بن شريك ، وكان مفروقٌ أغلبَ القومِ لساناً ، وأوضحَهم بيانا ، فالتفت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقال له : إلام تدعو يا أخا قريش ؟ ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم :

«أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنِّى رسول الله ، وأن تُؤْوونى ، وتنصرونى ، وتمنعونى ، حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به ، فإن قريشا قد تظاهرت عَلَى أمر الله ، وكذبت رسولَه ، واستغنتْ بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد».

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش ؟

فتلا رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [النحل ٩٠]

فقال له مفروق : دعوت – والله – يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسنِ الأعمال ، وقد أفِكَ قومٌ كذبوك ، وظاهروا عليك .

وقال هانىء بنُ قبيصة : قد سمعتُ مقالتك ، واستحسنتُ قولَك ، يا أخا قريش ، ويعجبنى ما تكلَّمتَ به ، فبشَّرهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – إن هم آمنوا – بأرض فارس ، وأنهار كسرى .

فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش ، فتلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب ٤٥]

ثم نهض رسول الله – صلى الله عليه وسلم .

فهذه مكانةُ تلك الآيات الثلاث ، وهذا مبلغُ تأثيرها عند العرب ، وذلك لِمَا جمعتْ بأسلوبها الآخذِ بالقلوب أصولَ الفضائل التى تَنبعُ من الفطر السليمة ، والتى دعا إليها كل رسول ، ونزل بها كلُّ كتاب .

فواصل تؤكد عقاب المشركين :

٢٠ – ومن هذه الفواصل ما كانت توضح عقاب هؤلاء المشركين ، وتبين جزاءهم ، بسبب كفرهم ، ومزيد عنادهم ، يقول تعالى فى مشهد من مشاهد يوم القيامة :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ

ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف ٣٨ ، ٣٩]

ويبين الله تعالى عقاب المشركين وجزاءهم بسبب ما كانوا يفعلونه من الصفير والتصفيق عند البيت الحرام ، ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً
وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنفال ٣٥]

فالمشهدان فى هذين الموضعين عن الكفار ، فما بال أحدهما اختَصَّ بقوله : ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ ، والآخر بقوله : ﴿ بما كنتم تكفرون ﴾ ؟

السبب فى ذلك : [١] أن قوله : [بما كنتم تكسبون] فى سورة الأعراف خَبَرٌ عن قوم ذُكِروا قبل هذه الآية فى قوله :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾

أى حظهم من العذاب المكتوب عليهم بقدر ما كسَبوا من سيئات الأعمال « حتى إذا جاءتهم رســــلنا يتوفونهم » أى يستوفونهم ليسوقوهم إلى النار « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعًا ، قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

فأخبر الله سبحانه فى هذا المشهد من مشاهد القيامة بأن أخراهم تسأل

---

(١) درة التنزيل ١٨٨ .

الله تعالى أن يُضْعِف العذابَ لأولاهم ، لأنهم ضلوا وأضلوا ، فيستحقون العذاب على قدر الاكتساب ، فلذلك طلبوا أن يكون عذابُهم ضعف عذابِ هؤلاء ، لإثمهم فيما كسبوا بضلالهم فى أنفسهم ، وإثمهم فيما اكتسبوا من إضلال غيرهم .

وقالت أولاهم لآخراهم «فما كان لكم علينا من فضل» أى أنتم مثلنا فى الضلال ، فلم يكن لكم علينا من فضل ، حتى تتركوا بدون عذاب ، أو تتقللوا منه .

فيقول الله لهم جميعا : ﴿ فذُوقُوا العذابَ بما كنتُم تكْسِبون ﴾ أى عذابكم سيكون بقدر ما كنتم تكسبون .

ولهذا ختمت الآية بذلك ، إذ الموضعُ يقتضى ذكرَ الاكتساب ، وما يجبُ على قدره من العقاب .

وأما قوله تعالى عن كفار مكة «وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية» .

أى صفيرا وتصفيقا ، فلم تكن صلاتهم تسبيحا وتمجيدا لله تعالى كما يفعلُ المؤمنون ، فلم يتقدم فى هذه الآية ما يوجب قدرا من العذاب دون قدر حتى يقال : ذوقوا من العذاب بقدر كسبكم له – كما كان فى الآية الأولى ، وإنما الذى تقدم هو ما يدلُّ على كفرهم حيث جاء قبل هذه الآية :

﴿ وَمَا كان اللهُ لِيعذِّبَهم وأنتَ فيهم ، ومَا كان اللهُ معذِّبَهمُ وهم يسْتَغْفِرون ، وما لهُمْ ألاَّ يُعذِّبَهم اللهُ وهمْ يصُدُّون عن المسجدِ

الحرام ﴾ ولهذا جاءت الفاصلة ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ دون ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ .

* * *

٢١ – ويحكى الله تعالى خطاب نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – لأهل مكة ، فيقول :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

[يونس ١٠٨]

ويقول فى المعنى نفسه :

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النمل ٩١ ، ٩٢]

فلماذا اختلفت الفاصلة فى الموضعين ، مع أن السابق عليهما فى الموضعين شىء واحد ؟

السبب فى ذلك :[١] أنه لما قال فى الآية الأولى : ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أى منفعةُ اهتدائه له ، وهى دوام النِّعمةِ والخلودِ فى الجنة – وقد اقتضى هذا أن يكون فى الضلال ضدُّه ، فقال : ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أى ضررُ ضلالِه عليه ، وهو دوام العقاب .

---

(١) درة التنزيل ٢١٦ .

ثم ختم الآية بالفاصلة ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أى وما يلزمنى أن أقيكُم حرَّ النارِ وشدةَ العذاب ، كالوكيل الذى يلزمه حفظ ما وُكِلَ إليه .

وأما الآية الثانية فإنما عدل بها عن ذكر الضلال ، وخالفت الآية السابقة عليها [آية يونس] لتُحملَ على الفواصل التى قبلها – فى سورة النمل – ، وهى كلها مختومةٌ بالواو والنون ، أو بالياء والنون ، ولهذا ختمت هذه الآية بالفاصلة ﴿ ومن ضلَّ ، فقل : إنما أنا من المنذرين ﴾ أى ممن يُعْلِمُكم ما يجبُ عليكم أن تجتنبوه ، ويَلْزَمُكم أن تحذروه .

وقد أدت فاصلة هذه الآية ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل ﴾ المعنى الذى أدته الفاصلة الأخرى : ﴿ ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ ، وإنما خالفتها هذه فى الفاصلة لتشاكل الفواصل التى قبلها مع تأدية مثلِ المعنى الذى أدته الآيةُ التى شابهتها .

* * *

٢٢ – ويخبر الله تعالى عن عقاب المشركين ، وما ينزل بهم من السوء فى الآخرة ، فيقول فى سورة هود(٢٢) :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾

ويقول فى سورة النحل (١٠٩) :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

فلماذا خصصت كل واحدة من الفاصلتين بمكانها دون الأخرى ؟ .

السبب فى ذلك[1] : أن الآية التى فى سورة هود قد تقدمها قوله تعالى :

(١) درة التنزيل ٢٢٠ .

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا
مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ
لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[هود ١٩ – ٢١]

فى هذه الآيات إخبارٌ عن قوم استحقوا مضاعفةَ العذاب بسبب صدهم عن سبيل الله ، فإذا صدوا هُمْ عن الدِّين صُدوداً ، وصَدُّوا غيرهم عنه صدًّا ، استحقوا تضعيف العذاب ، لأنهم ضلوا وأضلوا ، وهذا استحقاق (الأخسرين) دون (الخاسرين) ، ولذلك جاءت الفاصلة : ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ ، وفى هذا مناسبةٌ للفاصلة من جهة المعنى .

وهناك ما يضاهيه من جهة اللفظ ، وهو : أن ما قبل هذه الفاصلة [الأخسرون] الفاصلتان [يُبصِرُون ، يَفتَرُون] ، فما قبل [الواو والنون] متحركان لا يعتمدان على ألفٍ قبلها – و[الخاسرون] قبل نونه وواوه متحركان مستندان إلى مدةٍ قبلها ، وهذا ما جعل الخاتمة ﴿ الأخسرون ﴾ توفقة بين الفواصل .

فاجتماع هذه المناسبةِ المعنوية ، وهذه المناسبة اللفظية أوْجَبا اختيارَ الفاصِلة بلفظ [الأخسرون] دون [الخاسرين] .

وأما الفاصلةُ الثانية ﴿ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ فإنها

جاءت فاصلةً لآيةٍ لم يُخْبِر اللهُ فيها عن الكفار بأنهم مع ضلالهم أضلوا مَنْ سواهم ، وإنما قال فيهم : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

[النحل ١٠٦ – ١٠٨]

فلم يذكُر اللهُ تعالى فى هذه الآيات مايوجب مضاعفة العذاب لهم .

وهذه مناسبة للفاصلة من جهة المعنى .

وهناك ما يضاهيه من طريق اللفظ ، وهو أن ما قبل هذه الفاصلة [الخاسرون] الفاصلتان [الكافرين ، والغافلون] .

فاجتماع هذه المناسبة المعنوية ، والمناسبة اللفظية أوجبا اختيار الفاصلة بلفظ [الخاسرون] دون [الأخسرون] .

وعلى هذا فكل فاصلة من الآيتين وقعت موقعها ، وحلت محلَّها ، وكانت كل منهما فى مكانها المناسب ، الذى لو تبدل أو تغير لاختل المعنى ، وظهر ما يخالف الانسجام والالتئام .

فواصل تفضح المنافقين واليهود :

٢٣ – فضح الله المنافقين ، وكشف ما فى مخبآتهم ، وأبرز ما فى ضمائرهم ، ببيان ساطع ، ووضوح كامل،وذيل كلامهم بفواصل ، وختم أقوالهم بخواتيم ، وسمَهم فيها بالفساد ، وسلَب عنهم العقل والرشاد ، فقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة ١١ ، ١٣]

فلماذا خُتمت الآيةُ الأولى بالفاصلة ﴿ولكنْ لاَ يشْعُرون﴾ والآيةُ الثانيةُ بالفاصلة [ولكنْ لاَ يَعْلَمون] ؟

السبب فى ذلك :[1] أن النفاق وما فيه من البغى المؤدى إلى الفتنة والفسادِ فى الأرض أمرٌ دُنْيَوىٌّ مبنىٌّ على العادات ، معلومٌ عند الناس ، لِمَا كان قائما بينهم من التناحر والتحارب ، فهو من المشاهَد المحسوس عندهم – خصوصا عند العرب فى جاهليتهم – ولذلك كان من المناسب أن تختم الآية بالفاصلة ﴿ ولكنْ لا يَشْعُرون ﴾ .

والشعور : هو الإدراك بالحواس الظاهرة ، وإذا قيل:فلان لا يشعر ، فذلك أبلغ فى الذم مما لو قيل : هو لا يسمعُ ولا يبصرُ ، لأن حِسَّ اللَّمْسِ أعمُّ من حسِّ السمعِ والبصر ، ومن « الشعور » أُخِذ الشاعر ، لأنه يُدرك دقائق الأمور .

فنفْىُ الشعور عنهم أبلغ فى الذم ، للبعد عن الفهم ، لأن مَنْ لا يَشعُرُ بالبديهىّ المحسوس ، فرتبتُه أدنى مرتبة من البهائم ، فهُم إذنْ كالأنعام ، بلْ همْ أضَلّ .

وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن أم موسى – عليه السلام –

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

[القصص ١١]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

[البقرة ١٥٤]

---

(١) انظر فى هذه الآية : الجامع الكبير ٢١٥ ، البرهان جـ ١٥٨/٤ ، الكشاف جـ ٦٤/١ .

ولم يقـــل : [ولكن لا تعلمـــون] ، لأن المؤمنين إذا أخـــبرهم الله تعالى بأنهم أحياء علموا أنهم أحياء ، فلا يجوز أن ينفى عنهم العلم ، ولكنْ يجوزُ أن يُنفى عنهم الشعور ، فيقال : [لا تشعرون] ، لأنه ليس كل ما علموه يشعرون به ، كما أنه ليس كل ما علموه يحسُّونه بحواسهم ، فلما كانوا لا يعلمون بحواسهم حياتَهم ، وأنهم علموه بإخبار الله ، وجب أن يقال : « لا يشعرون » دون « لا يعلمون » .

أما الآية الثانية :

﴿ وإذَا قِيل لهم : آمِنُوا كما آمِنُوا كما آمَن الناسُ ، قالُوا : أنؤْمِنُ كما آمَنَ السُّفَهاء ، ألا إنَّهم هُم السُّفَهاء ، ولكنْ لاَ يَعْلَمون ﴾ .

فقد ختمت هذه الآية بـ « ولكنْ لا يعلمون » وذلك لأن أمر الديانة والوقوفِ على أن المؤمنين على الحق ، وهم على الباطل ، يحتاج إلى نظر واستدلال ، حتى يكتسبَ الناظر العلمَ والمعرفة بذلك .

كما أنه لما ذكر (السَّفَهَ) فى هذه الآية – وهو جهل – كان ذكر (العلم) معه أحْسَنَ طباقا .

فلهذا وذاك ختمت هذه الآية بـ (لا يعلمون) دون (لا يشعرون) – فكانت كل فاصلة فى الآيتين قارَّةً فى مكانها ، حالَّةً فى موضعها .

* * *

ومن دقة التمييز بين الفواصل ، وما توحى به من معنى ، وما تشير إليه من مضمون ، ما نجده من التفرقة فى الاستعمال بين [يعلمون ، ويشعرون] .

ففى الأمور التى يرجع إلى العقل أمر الفصل فيها نجد الفاصلة جاءت بـ [يعلمون] ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس ٥٥]

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر ٤٩]

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر ٢٦]

﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف ١٣١]

وليس هذا خاصا بالفاصلة ، بل أيضا فى غيرها ، فنجد الأمور التى يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها ، نجد كلمة [يعلمون] هى المقدمة فى التعبير عنها ، يقول تعالى :

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور ٢٥]

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة ٧٧]

﴿ والذين آتيناهم الكتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّه مُنَزَّلٌ من ربِّك بالحق ﴾

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [الأنعام ١١٤]

أما الأمور التى يكون للحواس مدخل فى شأنها ، فتكون الفاصلة [يشعرون] ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر ٥٥]

فالعذاب مما يشعر به ويحس .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل ١٨]

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر ٢٥]

٢٤ – وعندما عزم الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أن يغزو الروم فى ديارهم (تبوك) نبه المسلمين للاستعداد ، لهذا السفر الطويل ، وتلك الشُّقَّةِ البعيدة ، وحثهم على أن يكونوا فى كامل العدد والعدة ، لكنَّ بعضاً من المنافقين جبنُوا عن لقاء بنى الأصفر ، واعتذروا بأعذار غيرِ مقبولة – وهم فى حال طيِّبة من اليسر والقوة – ففضح اللهُ أمرهم ، وكشف سترهم ، وختم الآياتِ بفواصلَ تَدلُّ على غفلتهم ، وعدمِ فقههم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ۝ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة ٨٦ ، ٨٧]

وقال بعد ذلك بآيات فى المعنى نفسه :

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة ٩٣]

وفى هذه الآيات سؤالان :

الأول : لماذا قال فى الآية الأولى : (وطُبع على قلوبهم) بالبناء للمجهول فى (طُبع) ، وفى الآية الثانية (وطَبَع اللهُ على قلوبهم) بالبناء للمعلوم ، مع أن المقام متحد ؟ والكلام السابق على كلا الفاصلتين واحد ؟

الثانى : لماذا ختمت الآية الأولى بـ (فهم لا يفقهون) ، والآيةُ الثانية بـ (فهم لا يعلمون) ؟ .

أما الجواب عن المسألة الأولى : أن التعبير جاء بالبناء للمجهول فى الآية الأولى [وطُبع على قلوبهم] . لأن صدْرَ الآية جاء بفعل مبنى للمجهول وهو ﴿ وإذا أُنزِلتْ سُورةٌ ﴾ ، فكان هذا الفعل [طُبع] فى نهاية الآية محمولا على ما تقدم منها [أُنزِل] ، إذ من المعلوم أن الله الذى يَطْبع ، كما هو معلوم أن الله هو الذى يُنزِّل السورة ، فكان فى ذلك التوفيق بين نهاية الآية وأولها ، والتجانس بين صدرها وعجزها .

أما تسميةُ الفاعل فى قوله تعالى فى الآية الثانية ﴿ وطَبعَ اللّه على قلوبهم ﴾ ، لأن الموضعَ موضعُ إشباعٍ وتأكيد ، حيث إنَّ هذه الآيةَ ﴿ إنما السبيل ﴾ جاءت بعد نفى مكرَّرٍ فى قوله :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة ٩١ ، ٩٢]

فنَفَى الله تعالى الحرج عمن قعد عن الجهاد لأحد المعاذير التى ذكرها ، ثم أَلْزم الحَرَج القوم الذين حالُهم مضَادَّة لأحوال أولئك ، فقال :

« إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » .

فالإثم يتوجه على من يستأذن فى التخلف وهو قادر على الجهاد بالغِنَى واليَسَار ، وصحة الأبدان ، لكنهم رضوا بأن يكونوا مع النساء ، والزّمنَى والضعفاء .

فلما كان هذا الموضع موضعاً يتبين فيه مضَادَّةُ حالِهمَ لأحوال غيرهم ، لتخالف بين أحوالهم ، وأحوال من فَسَح فى القعود لهم ، كان ذلك موضع تنبيهٍ وتأكيدٍ ، وتخويفٍ وتحذير ، فلهذا سمى الفاعل ، وهو الله تعالى وجاء التعبير ﴿ وطَبَع الله على قلوبهم ﴾ .

أما المسألة الثانية :

فقد ختمت الآية الأولى بقوله : ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ وذلك لأن الذين ذُكِروا بالطَّوْل – وهو الفضل فى النفس ، والمال ، والقدرة على الجهاد ، وإنما مالوا إلى الدَّعة ، وأخلدوا إلى الراحة ، وأشفقوا من الحر ، ولم يَفْطنوا أن الراحة فى تحمل التعب مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأن الدَّعة توجد بتحمل المشقة معه ، فطلبوا ما كان مطلوبُهم ضدَّه ، لو فَقِهُوا له ، وفَطِنوا ، ولهذا كان ختام الآية ، وكان موضع الفاصلة (فهم لا يفقهون) .

وأما الآية الثانية ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ﴾ أى أن العقاب متوجهٌ على هؤلاء ، وهم لا يعلمون ما أعد اللهُ لكل ذى

عملٍ مُحِق عملُه ، ما يعلمه المؤمنون الذين يستجيبون للخروج ، والذين تفيضُ مدامعُهم إذا لم يُعِنْهمُ الرسول – عليه السلام – بالركوب .

فلما كان بإزائهم فى الآيتين اللتين قبلُ ، ذِكْرُ من تحقَّق بالدِّين ، وعَلِمَ الثوابَ والعقاب عِلْم اليقين ، وخالفهم هؤلاء ، نفى عنهم ما أثبته لأولئك – وهو العلم – فلذلك جاء فى ختام هذه الآية « فهم لا يعلمون » .

وعلى هذا فقد وقعت كل فاصلة من الآيتين موقعها ، وحلت محلها ، ولو استُبْدلت كلٌّ فاصلة فى الآيتين بغيرها لتغير المعنى ، وفسد الغرض .

٢٥ – ويصف الله تعالى أهل الكتاب بالجبن فى القتال ، والخوف عند النزال ، ويَعِدُ المؤمنين إن هم قاتلوهم بثبات قلب ، وقوة نفس ، فلا يتوقفون عند اللقاء ، ولا يخشونهم عند البأساء ، إن هم فعلوا ذلك سيولُّون الأدبار ، ولا ينصرون أبدا فى مستقبل حياتهم ، يقول تعالى :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ، لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

[آل عمران ١١٠ ، ١١١]

فقد يقول قائل : إن صدر الآية يغنى عن فاصلتها ، إذ توليهم عند اللقاء ، دليل على الخذلان ، فالفاصلة لا تدل على معنى جديد .

لكن عند إمعان النظر فى المعنى المقصود نرى أن الفاصلة أتت لغرض ، ودلت على معنى زائد ، نفقده عندما نفقد الفاصلة .

وذلك أن الله – سبحانه – أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم انهزم ، ثم أراد – وهو أعلم – تكميل الوعد بإخبارهم أنه مع توليه الآن

وانهزامه ، لا يُنْصَر أبداً فى الاستقبال ، فهو مخذول أبداً ما قاتلهم ، فيثق المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على هذا العدو ، ويتيقنون أنه متى قاتلهم كان مخذولا ، فيقدمون على لقائه كلما أرادوا ذلك بثبات قلب ، وقوة نفس ، فلا يتوقفون فى لقائه ، ولا يخشون مغبّة قتاله .

ولو وقع الاقتصار على ما دون الفاصلة ، لم يُوَفِّ الكلام بهذا المعنى المراد ، لأنه لا يعطى قوله : ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ أنهم متى قاتلوهم كان الأمر كذلك .

ولما علم الله – سبحانه – وهو أعلم – أن الاقتصار على ما دون الفاصلة لا يفهم منه دوام هذه البشارة إلى آخر الأبد ، والمقصود دوامها ، قال فى خاتمة الآية ﴿ثم لا يُنْصَرون﴾ .

وللدلالة على أنهم لا ينصرون لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال ، لم يجزم الفعل المضارع [لاينصرون] ، مع أنه معطوف على مجزوم ، لأنه نوى فى الفعل الاستئناف ، لا العطف ، ليبقى على المعنى الذى وضعت له صيغة المضارع للدلالة على الحال والاستقبال ، وقد عدل عن العطف إلى الاستئناف لما يوجبه هذا من تمام المعنى ، وتصحيح المراد من استمرار البشرى .

ثم إن اختيار حرف العطف [ثم] التى تفيد التراخى والمهلة ملائم جدا لما قصد من استمرار البشرى فى الاستقبال[1] .

* * *

(١) انظر بديع القرآن ٢٦١ .

٢٦ – ويصف الله تعالى يهود بنى النضير بشدة الخوف ، والرعب من قوة المؤمنين ، والجبن عن لقائهم ، وأنهم مهما تحصنوا بحصونهم ، فلن تحميهم حصونهم من الله ، يقول تعالى :

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر ١٣ ، ١٤]

فلماذا اختصت الآية الأولى بالفاصلة [لا يفقهون] ، والآية الثانية بالفاصلة [لا يعقلون] ؟

السبب فى ذلك[١] أن معنى الآية الأولى : أن هؤلاء اليهود يخافون من المسلمين خوفا أشد من خوفهم من الله تعالى ، وأنهم بذلك يعلمون ما ظهر لهم ، ويجهلون ما استتر عنهم ، حيث إنهم رهبوا النبى – صلى الله عليه وسلم – ومن معه ، رَهْبة ، دونها رَهَبتُهم من الله عز وجل ، وصاروا كمن يعرف ما يشهده ، ويجهل ما يغيب عنه ، وذلك عدم فطنة منهم ، وقلة فقه ، ولذلك ختمت الآية بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

أما الآية الثانية : فقد ختمت بقوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ لأنه جاء بعد وصف الله لهم بقوله : ﴿ بأسُهم بينهم شديد ، تحسَبهم جميعا وقلوبُهم شتَّى ﴾ فليس يجمعهم الحق على طريقة واحدة ، بل هم

(١) درة التنزيل ٤٧٦ .

أتباع أهوائهم ، مختلفون باختلاف آرائهم ، ولو عقلوا الرشد من الغى ، لاجتمعوا على الحق ، فاختلافهم لأنهم لا يعقلون نبيَّ الله الذى يدعو إلى الله ، ولذلك ختمت الآية بالفاصلة ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .

فقد بان ووضح أن كل فاصلة حالة فى مكانها ، قارة فى موضعها .

* * *

٢٧ – ويحكى الله تعالى مقولة من مقولات المنافقين من اليهود ، وما كانوا يدلون به من أقوال كانوا يجدونها مكتوبة فى كتبهم – مما تنبىء عن صفات النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – ونعوته التى جاءت فى آثارهم ، وكانت هذه التصريحات تغيظ رؤساء اليهود – غير المنافقين – إذ بهذا الكلام يَدُلُّون المؤمنين على عورات اليهود ، فتقوم عليهم الحجة فى عدم اتباعهم ، والإيمان بدينهم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٧٦]

فالآية الكريمة تحكى قول رؤساء اليهود الثابتين على يهوديتهم – غير المنافقين – لمن نافق منهم ، كيف تحدثون المؤمنين بما عرفكم الله من صفات محمد فى التوراة ليخاصموكم عند ربكم فى الآخرة ، ويقيموا عليكم الحجة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه ؟ ، فكان كل ذلك تمهيدا لهذه الفاصلة : ﴿ أفلا تعقلون ﴾» .

فهذه الفاصلة[١] مناسبة جدا لما قبلها ، حيث إن من دل عدوَّه على

(١) انظر فى هذه الآية تفسير الجليلين ، البرهان جـ ٨٣/١ .

عورة نفسه ، وأعطاه سلاحه ، ليقتله به ، فهو جدير بأن يكون مقلوب العقل ، فلهذا ختمت بالفاصلة ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

وهذه الفاصلة [أفلا تعقلون] لا تقع إلا فى سياق إنكار فعل غير مناسب فى العقل ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٤٤]

وذلك لأن فاعل الشىء غير المناسب ليس بعاقل .

* * *

٢٨ – ويقص الله علينا خبر من تخلف عن الرسول – عليه السلام – فى الخروج معه إلى الحديبية ، خوفا من مواجهة قريش ، واعتذروا بأعذار واهية ، لكن الله تعالى يكذبهم فى اعتذارهم ، فيقول :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح ١١]

ويقول بعد ذلك فى هذه القصة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح ٢٤]

فلماذا ختمت الآية الأولى بالفاصلة ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ والثانية بالفاصلة ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ ؟

السبب فى ذلك[1] : أن الآية الأولى فى ذِكْر ما أسَرَّه الأعراب المخلفون من نفاقهم ، فقد أضمروا خلاف ما أظهروا ، وقالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فمن الذى يَخْبُر ما فى باطنهم ، ويكشف ما فى مخبآتهم ؟ لا يستطيع ذلك إلا الله – سبحانه – ولذلك جاءت الفاصلة ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيرا ﴾ .

أما الآية الثانية : فقد كَفَّ الله تعالى أيدى المشركين عن المسلمين بما قذف فى قلوبهم من الرعب ، كما كف أيدىَ المسلمين عن المشركين بأن أمرهم الله ألا يحاربوهم ، ولا يرفعوا السيوف فى وجوههم ، وذلك عمل من شأنه أن يُبصر ويُرَى ، ولذلك كانت الفاصلة ﴿ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ . فكل فاصلة فى الآيتين قرت فى مكانها ، وحلت محلها .

* * *

٧٩ – ورجع الرسول – صلى الله عليه وسلم – من إحدى الغزوات ، فوجد المنافقين من يهود المدينة ، دبروا حيلة لإخراجه منها ، وظنوا أنهم بتدبيرهم هذا سينفضُّ المسلمون من حول الرسول – عليه السلام – لكن الله تعالى فضحهم ، وكشف تدبيرهم ، ورد كيدهم فى نحورهم ، وذيل كلامهم بفاصلتين ، وسمهم فيهما بالغفلة ، وإنعدام الفطنة ، فقال تعالى .

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون ٧ ، ٨]

(١) درة التنزيل ٤٤٤ .

فما الذى أوجب اختصاص كل فاصلة بموضعها ، فكان فى الآية الأولى ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ ، وفى الثانية : ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ ؟

السبب فى ذلك :[1] أن الآية الأولى تخبر بأن اليهود دبروا الإضرار بالمسلمين ، وحبس النفقات عنهم ، وهم لا يفطنون أنهم بفعلهم هذا أضروا بأنفسهم ، دون مَنْ عند رسول الله ، لأن الله لا يحبس ما قَدَّر من أرزاقهم ، فلا يضرهم إذا حبسوا إنفاقهم فهم لا يفطنون لذلك ، ولا يفقهونه ، ولذلك كانت الفاصلة : ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ .

وأما الآية الثانية فكانت قولتهم فيها : ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل﴾ فالأعز فى تفكيرهم من كانت له الغلبة والقوة – على ما كان عندهم فى الجاهلية – ولا يعلمون أن هذه القدرة التى يفضل بها الإنسان غيره ، إنما هى من الله تعالى ، ولذلك ختمت هذه الآية بالفاصلة ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ .

فكل فاصلة فى الآيتين ختمت بما يليق بها ، فاستقرت فى مكانها ، وحلت محلها .

* * *

---

(١) نفسه ٤٨٥ .

فواصل فى مواضع متفرقة :

٣٠ – يرشد الله تعالى نبيه محمدا – صلى الله عليه وسلم – حين يتمثل له الشيطان من الجن ليصرفه عن دعوة الحق ، أن يستعيذ بالله ، ويلجأ إليه ، فيقول :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
[الأعراف ٢٠٠]

ويقول فى مكان آخر ، فى المعنى نفسه :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾
[فصلت ٣٦]

ويقول فى مكان ثالث مرشدا الرسول – صلى الله عليه وسلم – حيث يتمثل له الشيطان من الإنس الذين يؤنَسُون ، ويُرَوْن بالأبصار ، فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر ٥٦]

فلماذا اختلفت الفواصل فى الآيات الثلاث ، مع توحيد الاستعاذة فيها كلِّها ؟

ولماذا كانت الفاصلة الأولى : [إنه سميع عليم] بدون تعريف ، والفاصلة الثانية [أنه هو السميعُ العليمُ] بتعريف [السميعُ العليمُ] والإتيان مع ذلك بضمير الفصل [هو] والفاصلة الثالثة : [إنه هو السميع البصير] ولم يقل : [السميع العليم] كالفاصلة قبلها ؟ .

السبب فى اختلاف تلك الفواصل :[1] أن نزغَ الشيطان وتصرفاته ، وساوسٌ وخطرات ، يُلقيها فى القلب ، وهذا مما يتعلق به العلم لا البصر ، ولذلك جاءت الفاصلة ﴿ إنه سميعٌ عليم ﴾ فى الآية الأولى ، و ﴿السميعُ العليمُ﴾ فى الآية الثانية .

ولما كانت أفعالُ الشياطين من الإنس ظاهرة ، ومعَاينةٌ ، تُرى بالبصر ، وتُدرك بالرؤية كانت الاستعاذةُ بـ [السميع البصير] فى الآية الثالثة .

ولما كان الأمر بالاستعاذة فى سورة فصلت فى قوله تعالى : « وإمَّا يَنزغَنَّك من الشيطانِ نزْغٌ فاستعذْ بالله إنَّه هو السَّميعُ العليمَ » وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس ، وهو مقابلة إساءة المُسىء بالإحسان إليه ، فى قوله تعالى :

﴿ولاَ تَسْتوى الحسَنَةُ ولا السِّيئة ، ادْفَع بالتى هِىَ أحْسَن فإذَا الذى بيْنَك وبَينَه عَداوةٌ كأنَّه ولِىٌّ حَميمٌ ، ومَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الذين صَبَرُوا وما يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظيمٌ ﴾ وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون .

ولما كان الشيطانُ لا يَدَعُ العبدَ يفعلُ هذا ، بل يُريه أن هذا ذلٌّ وعجزٌ ، فيدعُوه إلى الانتقام ، ويَزيِّنه له ، فإن عَجَز الشيطانُ عن هذا ، دعاه إلى الإعراض عنه ، وألا يسىء إليه ولا يحسن ، كان لا يُؤْثِرُ الإحسانُ إلى المسىء إلا من خالف الشيطان ، وآثر الله وما عنده ، على حظه العاجل .

---

(١) انظر بدائع الفوائد جـ ٢٣٨/٣ ، ٢٦٧ .

ولهذا كان المقام مقام تأكيد فأتى بضمير الفصل [هو] الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعُرِّف الوصفُ أيضا فقيل : [إنه هو السميعُ العليم] لاقتضاء المقام لهذا التوكيد .

وتُرِكَ ذلك فى سورة الأعراف ، لاستغناء المقام عنه ، حيث إن الله تعالى أمره أن يعرض عن الجاهلين ، فى قوله : ﴿ خُذِ العَفْو ، وأْمُرْ بالعُرفِ ، وأعْرِضْ عن الجَاهِلين ﴾ وليس فيها الأمرُ بمقابلةِ إساءتهم بالإحسان ، وهذا سهلٌ على النفوس ، غير مستعصٍ عليها ، فليس حِرْصُ الشيطان وسعيُه فى دفع هذا كحِرْصِه على دفع مقابلة الإساءة بالإحسان ، ولذلك جاءت الفاصلة هنا ﴿ إنه سميعٌ عليم ﴾ بدون توكيد ، كما جاءت فى الآية السابقة ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ .

وعلى هذا فكل فاصلة فى كلا الآيات جاءت فى مكانها ، وحلت فى موضعها ، ولو تغير إحداها مكان الأخرى ، لفات الغرضُ المراد ، وضاع الهدفُ المقصود .

أما تأثيرُ الاستعاذة فى قهر الشيطان ، والتغلب على شرِّه ، فلا شك فيه بعد ما أشارت إليه الآيات من كلام الله ، وقد جاءت السنة الشريفة موضحةً ذلك ، ففى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صُرد ، قال :

كنت جالسا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – ورجلان يستبَّان ، فأحدهما احمرَّ وَجْهُه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – « إنى لأعلم كلمةً لو قالها ذهب عنه ما يَجِد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ذهب عنه ما يجد » .

* * *

٣١ – ويفصِّل الله تعالى جزاء المجاهدين ، وثوابَ المقاتلين الذى ينالون من العدو ، فيصيبهم منه ما يؤلمهم ويؤذيهم ، فيقول :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

[التوبة ١٢٠ ، ١٢١]

فلماذا عقب الآية الأولى بالفاصلة ﴿ إن الله لا يضيعُ أجْر المحسنين ﴾ والثانيةَ بالفاصلة ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ ؟

السبب فى ذلك(١) أن الآية الأولى مشتملةٌ على ما هو من عمل المجاهدين وهو قوله : ﴿ ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ كما أنها مشتملة على ما ليس من عملهم وهو [الظمأ ، والنصب ، والمخمصة] إذ ذلك من فعل الله بهم ، والله سبحانه بفضله وإحسانه أَجْرَى ما ليس من عملهم – بل هو من عمل الله بهم – مُجرى عملهم فى الأجر والثواب ، بسبب ما يصل إليهم من ألم العطش ، والتعب ، والجوع ، فقال : ﴿ إلا كُتب لهم به عمل صالح ﴾ أى : جزاءُ عملٍ

(١) بصائر ذوى التمييز جـ ٢٣٦/١ ، درة التنزيل ١٩٣ .

صالح ، ولهذا ختمت هذه الآية بقوله : ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ فمن أحسن طاعة الله ، وتَعَرَّضَ لما يلحقُه فيها من هَذه الشدائد ، فهو من المحسنين .

ولما كانت الآية الثانية مشتملةً علي ما هو من عملهم فقط ، وهو إنفاق المال فى طاعة الله ، وتَحمُّل المشاق فى قطع المسافات ، فقال ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا ﴾ فكتب الله لهم ذلك بعينه ، ولأن كل هذا من عملهم ، ووعدهم عليه حسن الجزاء ، قال فى الفاصلة : ﴿ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ - فكانت خاتمة كل آية موافقة لما كان قبلها من غرض .

* * *

٣٢ - ويرشد الله تعالى الأزواج إلى المعاملة الحسنة ، والخوفِ من الله ، والمسامحةِ عند الانفصال ، فقال :

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

[النساء ١٢٨ ، ١٢٩]

فلماذا ختمت الآية الأولى بالفاصلة : ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ والآيةُ الثانية بالفاصلة ﴿ فإن الله كان غفورا رحيما ﴾ ؟ .

السبب فى ذلك :[1] أن الفاصلة فى كلٍّ منهما مرتبةٌ على ما قبلها من مضمون .

فالمعنى فى الآية الأولى : إنْ خافت امرأةٌ من زوجها ترفعا عليها بالتقتير فى نفقها ، لبغضها ، أو طموح عينه إلى ما هو أجملُ منها ، أو نُبُوًّا الملل ، أو إعراضا لموجِدة ، فلا إثم فى أن يتصالحا ، على أن تترك له من مهرها أو بعض أثاثها ، ما يتراضيان به ، والصلحُ خيرٌ ، ونفسُ كلٍّ منهما تَشِحٌّ بما لَها قِبَل صاحِبِها .

ومثل هذه الظروف تقتضى أن يعامل الأزواج الزوجات بالحسنى ، وترك القبيح ، فإن فعلوا ذلك ، وتجافوا القبيح ، وآثروا المعاملة بالإحسان ، فالله به عليم ، وعليه مجاز ، ولهذا حسن ختام هذه الآية بالفاصلة : ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

وأما المعنى فى الآية الثانية : أن العدلَ بين النساء فى محبتهن غير مستطاع ، لأن ذلك ليس إليكم ، وإن حَرَصتم على التسوية بينهنَّ ، فلا تميلوا كل الميل ، بأن تجعلوا كل مبيتِكم ، وجميل عشرتِكم ، وسَعةِ نفقتكم ، عند التى تشتهونها دون الأخرى ، فتبقى مُعَلَّقةً لا هى ذات زوجٍ ، ولا هى مطلَّقة .

فاقتضت تلك الظروف أن يحث الأزواج على إصلاح ما كان بينهم من الانصباب إلى الواحدة دون ضَراتها ، بالتوبة مما سلف ، واستئنافِ ما يَقْدِرون عليه من التسوية ، ويملكونه من الخلوة ، وسَعةِ النفقة ، وحسنِ العشرة .

---

(١) انظر درة التنزيل ٨١ .

فلما عَذَر الأزواجُ فى بعض الميل ، وهو الذى لا يملكون خلافه ، وحثهم على ما يطيقون فعله ، وعلى صلاح ما سلف منهم ، جاءت الفاصلةُ لتبينَ أن الله يغفر لمن يقلع عن ذنوبه ، ويُؤْثِر بعدها الحسنى من أفعاله ، فقال تعالى : ﴿ فإن الله كان غفورا رحيما ﴾ .

وبهذا نجد أن كل فاصلة من الآيتين ، قد وقعت موقعها ، وحلت محلها .

* * *

٣٣ – يصف الله تعالى مشركى العرب الذى كانوا يقومون بسقاية الحاج ، ويَعمُرون المسجد الحرام ، ثم بعد ذلك يَرْجُون ثوابا من الله ، مع إشراكهم به ، يصفهم بأنهم ظالمى أنفسهم ، فيقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

[التوبة ١٩]

وقال بعد ذلك : فيمن آثر مراعاة الأبناء والأهل على الجهاد فى سبيل الله ، وأوعدهم عقابه ، فقال : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

[التوبة ٢٤]

وقال بعد ذلك فى الكفار الذين كانوا يحللون بعضَ الأشْهُرِ الحرام ، ويحرِّمون بَدَله ما ليس بمحرَّم ، ليُوفُّوا بذلك عِدَّةَ المحرمات أربعة ، فقال تعالى فيهم :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة ٣٧]

فلماذا خصت الآيةُ الأولى بالفاصلة ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ والآيةُ الثانية بالفاصلة ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ، والآيةُ الثالثة بالفاصلة ﴿ والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ؟ ، وهل ذلك لمعنى يَخُصُّ كل فاصلة ؟ .

السبب فى ذلك : (١) أن الآية الأولى خاصةٌ بمشركى العرب الذين قاموا بسقاية الحاج ، وأنفقوا أموالهم فى عمارة المسجد الحرام ، رجاء الثواب مع المقَام على الكفر والعصيان ، فهم بذلك ظالمون لأنفسهم ، وبِعَمَلهم الذى يأمُلون الانتفاع به مع كفرهم ، واضعون للشىء فى غير موضعه ، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

وأما الآية الثانية : فهى وعيد من الله تعالى لمن آثر الآباء ، أو الأبناء ، أو الإخوة ، أو الأموال على طاعة الله التى أوجبها من الجهاد فى سبيله ، فمن

---

(١) انظر درة التنزيل ١٩٣ .

فعل ذلك ، وآثر هذا على طاعة الله ، فهو بفعله هذا صار من جملة الفاسقين ، ولذلك كانت الفاصلة ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ .

وأما الآية الثالثة : فقد كانت وصفا للمشركين بفعل النسيء ، وهو ما كان بعض العرب يأتيه من تحليل بعض الأشهر الحرم ليقاتلوا فيها ، وتحريم بدله من الشهر الذى ليس بمحرم ، ليُوفوا عدة الأربعة ، فيكون فى ذلك تحريم ما حلله الله ، وتحليل ما حرمه الله ، ولذلك أخبر الله تعالى بأن ذلك زيادةٌ فى كفرهم ، وعقَّبَهُ بأنه لا يهديهم ، فهم بهذه الأوصاف أحقُّ بوصفِ الكافرين ، ولذلك كان ختام هذه الآية ﴿والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ .

وبهذا يتبين لنا أن كل آية ختمت بما يليق بها ، وبما يناسبها فى المعنى ، ويوافقها فى الغرض .

اختلاف الفواصل والمتحدث عنه واحد :

تحدثنا فى الصفحات السابقة عن الفواصل التى اختلفت والمتحدث عنها مختلف ، وعرفنا أسرارها البديعة ، ونظامها الدقيق ، وتبين لنا أن كل فاصلة حلت محلها ، ووقعت موقعها ، وأنه لو تبدل إحداها مكان الأخرى لتبدل المعنى ، واختلف الغَرض .

وهذا هو النوع الثانى من الفواصل التى اختلفت مع اتحاد المحدث عنها .

٣٤ – يُذكرٌ الله تعالى المؤمنين بما غمرهم من فضل ، وأسبغ عليهم من نعمة ، عندما نصرهم فى غزوة بدر ، وأمدهم بجنود من عنده ، وأيدهم

بملائكة من لدنه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الانفال ١٠]

وقال فى مكان آخر فى الغزوة نفسها :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران ١٢٦]

فلماذا اختلف الإخبارُ عن الله تعالى بالعز والحكمة فى الآيتين ، فجاءت الفاصلة فى سورة آل عمران مجىء الصفة ، فقال :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

وجاءت الفاصلة فى سورة الأنفال بلفظ الخبر الثانى المستأنف ، فقال : ؟

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

السبب فى ذلك : (١) أن القصد فى الآيتين إعلامٌ المخاطبين أن النصر ليس من قبل الملائكة ، ولا من جهة العَدَدِ والعُدَّةِ ، وفَضْلِ القوة ، ولكنه من عند القادر الذى لا يُغلب ، ولا يُمنَعُ عما يريد فِعْلَه ، والحكيمُ الذى يضعُ النصر موضعه .

والآية التى جاءت فى سورة الأنفال إنما هى فى قصَّة يوم بدر ، وبيَّن الله ذلك فيه بجملة مستأنفة ، وهى كالعلة لكون النصر من الله تعالى ، فكأنه قال : النصر ليس إلا من عند الله العزيز الذى لا يمنعُه أحدٌ عما يريد فِعْلَه ، والحكيم الذى يَضَعُ النصر فى موضعه ، ففصَّل ذلك فى خَبَرَيْنَ الأول :

(١) درة التنزيل ٧٢ .

[وما النصر إلا من عند الله] ، والثانى : [إن الله عزيزٌ حكيم] وذلك على الأصل الواجب فى تَوْفِيَةِ كلِّ معْنًى حَقَّهُ من البيان .

وأما الآية الثانية : فقد جاءت فى آل عمران فى خلال أحداث غزوة أحد تذكير المسلمين بنعم الله عليهم يوم بدر ، ولما كان البيانُ الكاملُ لهذا اليوم الأول جاء فى خبرين فى الآية السابقة ، اقتصر فى هذا اليوم – يوم أحد – على خَبَرٍ واحدٍ فقط ، اختصاراً للمعنى عن البسط ، واعتماداً على ما فُصِّل فى الخبر الأول ، فكان الاقتصارُ – فى يوم أحد – على أحد الخبرين أليق ولهذا جاءت الفاصلة ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ دون ﴿ وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ .

وعلى هذا فقد حلت كل فاصلة محلها فى كلتا الآيتين ، ووقعت موقعها ، ولو تغيرت الفاصلة بأختها لفسد المعنى ، واختل النظم .

٣٥ – وفى قصة موسى – عليه السلام – مع سحرة فرعون ، حينما أغراهم فرعون بمسابقة موسى فى السحر ووعدهم إن غلبوا الأجر الكبير ، والحظوة عنده ، قال تعالى فى ذلك : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾

[الأعراف ١١٣ ، ١١٥]

وقال فى القصة نفسها أيضا : ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ ﴾ [طه ٦٣ ، ٦٥]

فما السبب فى اختلاف هاتين الفاصلتين فى الموضعين مع أنهما فى موضع واحد ؟ .

السبب فى ذلك : اختيرت الفاصلة فى سورة الأعراف ﴿ وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ لأن الفواصل قبلها كانت على هذا الوجه ﴿ نَحنُ الغَالِبين ، لَمِنَ المقرَّبين ﴾ واختيرت الفاصلة فى سورة طه ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ لأن الفاصلة فيها مساويةٌ للفواصل قبلها [المثلى ، استَعْلَى] .

ففاصلة كل آية كانت تبعا لما قبلها ، وبهذا يتم الائتلافُ فى الفواصل ، والانسجامُ فى خواتم الآيات .

هكذا قال الخطيب الإسكافى[1] ، وكأن تناسب الفواصل وحده هو الذى عدَّل التعبير ، وجعل المحْكيَّ عن السحرة مختلفا – ولكننا إذا أمعنا النظر ، ودققنا فى التعبير ، وجدنا أن هناك معنى مقصودا ، وغرضا يُلْمَح من اختلاف هذا المحْكيِّ ، وهو أن كلاًّ من الآيتين بوضعها هذا الوضع الذى جاءت عليه ، قد بلغت من السمو القولى غايته ، فكلتا الآيتين تشير إلى ما كان يتردد فى نفوس السحرة ، ويَلُوحُ فى أفئدتهم من نشوة النصر المرتقَبَة ، واعتقادٍ جازم بهزيمة موسى وأخيه ، وأنه لا يختلف عليهم الحال بالتقديم أو التأخير فى الإلقاء ، لكنَّ رغبتهم فى التقديم كانت ظاهرة ، ومن هنا فقد كان تعبيرهم فى كلتا الآيتين يتضمن هذا .

ومما يدل على رغبة السحرة المؤكدة فى أن يتقدموا على موسى فى الإلقاء التعبيرُ فى كلتا الآيتين ، ففى سورة الأعراف :

---

(١) درة التنزيل ١٧٤ .

﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين﴾

فقد أكدوا كلامهم بضمير الفعل [نحن] ، وإدخال الألف واللام على [الملقين] ، وما تفيده الجملة الاسمية من اليقين بالنصر ، والثبات على التقدم .

وكذلك فى سورة طه فقد قالوا :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴾

فكلامهُم يوحى بأنهم كانوا أحرص على إلقاء سِحْرهم أولا ، ليفوزوا بالغلبة ، ويَحظوا بالأجر الموعود .

فإذا زدنا على ذلك المعنى المستكن ، والسرِّ الخفى ، محافظة القرآن الكريم على رعاية الفاصلة فى كلتا السورتين ، حتى يطردَ النظم ، ويتكامل التناسب ، تبين لنا أن القرآن فى قمة السمو فى التعبير .

ولو جاء التعبير « إما أن تُلْقِى ، وإمَّا أنْ نُلْقِى » فإن فيه فضلا عن عدم اطراد النظم ، وتخالفِ الفاصلة ، فيه ما يشيرُ إلى عوامل الشك والقلق الذى يُساور السحرةَ من نتيجة إلقائهم السحر.[1] .

٣٦ – يمتنُّ الله تعالى على المسلمين لنصرته لهم فى عام الحديبية ، ويُبشِّرهم بفتح مكة ، وانتشارِ الإسلام على أرض العرب ، فيقول :

﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

[الفتح ٤]

(١) البديع فى ضوء أساليب القرآن ١٥٢ .

ويقول بعد ذلك : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

[الفتح ٦ ، ٧]

فلماذا خُتمت الآيةُ الأولى بالفاصلة [عليما حكيما] ، والثانيةُ بالفاصلة [عزيزا حكيما] ؟

السبب فى ذلك :(١) أن أول سورة الفتح ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ فسَّرها العلماء على أنها نزلت على الرسول – صلى الله عليه وسلم – مرجعَه مِن الحديبية ، مُبَشِّرةً بما يكون من فتح مكة فى المستقبل القريب ، والمعنى : إنا قضينا بفتح مكة عن محاربة منك لأهلها ، ومغالبتهم على دخولها ، ويتمُّ نعمته عليك بانتشار الإسلام على جميع أرض العرب ، وقد علم الله هذا – وهو ما يكون قبل كونه – وقَرن مع ذلك الحكمةَ بصنعه ، وهو مبُشِّرٌ لكم بما لم يُعجِّلْه فى وقته ، لمِا اقتضت الحكمة من تأخيره ، ولهذا ختمت الآية بالفاصلة ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ .

أما الآية الثانية ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾

فقد ذكر الله فيها قدرتَه على عقابهم ، وقهره لهم بعذابهم ، فلما عذَّبهم ، وأذلهم ، وأباح للمؤمنين قَتْلَهم ، وغَنْمَ أموالهم ، فكان هذا

(١) انظر درة التنزيل ٤٤١ .

المقام مقتضيا أن يتصف الله تعالى بالقهر ، والعزة والحكمة ، ولهذا كان ختام هذه الآية بالفاصلة ﴿ وكان الله عزيز حكيما ﴾ .

وبهذا صار كلٌّ من فاصلتى الآيتين فى موضعه المناسب ، ومحلِّه اللائق .

ومثل هذه الفاصلة ، ما ختم الله تعالى به ما قاله فى أهل بيعة الرضوان : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

[الفتح ١٨ ، ١٩]

فقد جاءت الفاصلة تصف الله تَعالى بالعزة ، والحكمة ، لَمَّا كانت الآية كلها تدل على القهر والغلبة .

٣٧ – يصف الله تعالى الإنسان وما وَصل إليه من التَّنكُّر للخير والبطر على النعمة ، فقال : ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

[إبراهيم ٣٢ ، ٣٣]

ثم يعددُ نعمة الله على عباده ، ويمتنُّ بها على خلقه ، فيقول :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

[إبراهيم ٣٤]

وفى سورة النحل يسوق كثيرا من الآيات الدالة على ألوهيته ، الناطقة بربوبيته ، ثم يختم هذه الآيات بقوله تعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

[النحل ١٨]

فما السبب فى اختلاف هاتين الفاصلتين ، مع أن المتحدَّثَ عنه شىءٌ واحد ؟

ينقل صاحب البرهان[1] عن القاضِى ناصر الدين بن المنَيّر ، فيقول عن اختلاف الفاصلتين ﴿ إنَّ الإنسانَ لظلومٌ كفار ﴾ و ﴿ وإنَّ الله لغفورٌ رحيمٌ ﴾ .

إذا حصلت النعمُ الكثيرةُ – للإنسان – فهو آخذها ، والله مُعطيها ، فيحصلُ عند الإنسان صفتان : كونُهُ ظالما ، وكونه كفَّاراً ، ولِلّه عند إعطائها وصفان ، وهما : أنه غفور رحيم ، يقابل ظلم الإنسان بغفرانه ، وكفره برحمته ، فلا يقابلُ تقصيَره إلا بالتوقير ، ولا يجازى جفاءه إلا بالوفاء .

ولكن ما الحكمة فى تخصيص آية النحل بوصف المنعِم ، فتكون فاصلتها : ﴿ إن الله لَغفور رحيم ﴾ وآيةُ إبراهيم بوصف المنعَم عليه ، فتكون الفاصلةُ ﴿ إن الإنسان لَظلومٌ كفار ﴾ ؟

السبب فى ذلك أن سياق الآية فى سورة إبراهيم فى وصف الإنسان ، وما جُبِل عليه من التنكر للخير ، والبَطَرِ على النعمة ، ولذلك ناسب ذكر هذه الخاتمة ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ عَقِب أوصافه

(١) البرهان جـ ٨٦/١ .

وأما آية النحل فَسِيقتْ فى وصف الله تعالى ، وإثباتِ ألوهيته ، وتحقيق صفاته ، ولهذا ناسب ذِكرُ هذه الخاتمة ﴿ إن الله لَغفورٌ رحيمٌ ﴾ عَقِب أوصافِه تعالى .

* * *

٣٨ – يُدَلِّلُ الله تعالى على إمكان وقوع البعث ، وقدرتِه على إيجاد الخلق الثانى ، فيخاطب المشركين بقوله :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

[الجاثية ١٢ ، ١٣]

ثم يختم هذه الآيات بقوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

[الجاثية ١٥]

ويقوله تعالى فى سورة فصّلت فى معنى هذه الآية :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت ٤٦]

فما السبب فى اختلاف هاتين الفاصلتين ، مع أن المتحدث عنه شىء واحد ؟

السبب فى ذلك[1] : أن آية الجاثية جاءت خاتمتُها ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ ، لأن قبل هذه الآية :

(١) البرهان جـ ٨٦/١ .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الجاثية ١٤]

فقد وصفهم الله فى هذه الآية بإنكار البعث ، فناسب الختام بفاصلة تدل على البعث ، فقال ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ .

وأما الفاصلة الثانية ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فقد جاءت بعد ما يفيدُ أن الله تعالى لا يضيع عملا صالحا ، ولا يَزِيد على مَنْ عمل سَيِّئاً شيئا ، ولهذا كان الختامُ بهذه الفاصلة مناسب .

* * *

٣٩ – ولما كان الشرك بالله تعالى من الذنوب الكبيرة ، إذ أن المشركَ يسوِّى بين الربِّ والمربوب ، ويجعل من لا يخلقُ كمن يخلقُ ، كان غفرانُ هذا الذنب من الجرائم التى لا تغتفر ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٤٨]

ويقول بعد ذلك فى السورة نفسها وفى المعنى عينه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء ١١٦]

فما السبب فى اختلاف هاتين الفاصلتين ، مع أن المتحدث عنه شىء واحد ؟

السبب فى ذلك(١) : أن المتحدث عنه فى الآية الأولى هم اليهود ، بدليل ما قبلها من الآيات

(١) الإتقان جـ ١٠٢/٢ ، البرهان جـ ٨٧/١ .

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

فقد افتَرَوْا على الله ما ليس فى كتابه ، ولذلك فإثمهم كان عظيما ، وكان من المناسب أن تكون الفاصلةُ :

﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾

أما الآية الثانية : فقد نزلت فى المشركين ، بدليل السياق قبلها وبعدها ، والمشركون لا كتاب لهم ، ولذلك كان غَيُّهم أشد ، وضلالُهم أبعد ، فكان من المناسب ختام هذه الآية بالفاصلة

﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا ﴾

وعلى هذا فقد ختمت كل آية بما يناسبها ، فوقعت الفاصلة موقعها ، وحلت محلها .

* * *

٤٠ – وقد تكون المخالفة فى الفواصل مع اتحاد المحدث عنه ، لزيادة الفائدة ، واجتناب صور التّكرار[١] ، وتعديد الأوصاف وإثباتها ، كقوله تعالى فى طوائف اليهود :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾
[المائدة ٤٤]

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾
[المائدة ٤٥]

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾
[المائدة ٤٦]

(١) الإتقان جـ ١٠٢/٢ ، البرهان جـ ٨٧/١ .

فقد اختلفت الفواصل ، وكُرِّرَتْ ، مع اتحاد المحدَّث عنهم – وهم اليهود – لتعديد تلك الأوصاف ، فمن لم يحكم بما أنزل الله ، هم الساترون لحُكْمِه ، والظالمون لأنفسهم ، والخارجون عن الطاعة ، فأثبتت لهم هذه الأوصاف كلُّها للفائدة ، مع اجتناب صورة التكرار .

اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف :

٤١ – عرفنا فى الصفحات الماضية الفواصل التى اختلفتْ ، والمحدَّث عنه مختلف ، ثم الفواصلَ التى اختلفت والمحدَّث عنه واحد ، وتبين لنا المعانىَ السامية ، والأسرار الخفية لذلك .

وها نحن ، نأتى على هذا النوع من الفواصل ، وهو : اتفاق الفاصلتين والمحدَّث عنه مختلف ، ومثل ذلك ، قوله تعالى ينظم طريقة الاستئذان فى البيوت للإماء ، والأطفال ، ومن بلغوا الحُلُم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ
جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ
اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ
الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور ، ٥٨ ٥٩]

فالآيتان فى موضوع واحد ، وهو الاستئذان فى البيوت ، لكن الآية الأولى : خاصةٌ بالإماء ، والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم ، والثانية : فى

الذين بلغوا الحلم ، فاختلف الحال فى كل آية ، لكن الفاصلة فيهما جاءت متحدة ، لتشابه الآيتين فى الهدفِ والغاية ، وكما اتحدا فى الهدف والغاية اتحدا فى الفاصلة .

٤٢ – ومثلها قوله تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة ٨١ ، ٨٢]

فقد اتفقت الفاصلتان فى الخلود ، إلا أن هذا الخلودَ مختلف ، فأحدهما خلود فى الجنة ، والآخرُ خلودٌ فى السعير ، فلما اتفقتا فى الخلود ، كان من المناسب أن يتفقا فى الفاصلة .

٤٣ – ومثل ذلك ، قوله تعالى :

﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات ٥٠ ، ٥١]

مشكلات الفواصل :

حق الفاصلة أن تكون ممكِّنة للمعنى المسوق له الكلام ، وأن تؤكِّد الغَرضَ المقصودَ من الآية ، بأن تأتىَ ممكِّنةً فى مكانها ، مستقرةً فى موضعها ، مطمئنةً فى قرارها ، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ ، متعلقا معناها بمعنى الكلام كلِّه تعلقا تاما ، بحيث لو طُرِحت الفاصلةُ جانباً أحسَّ صاحبُ الذَّوْق السليم ، والفطرةِ الطيبة ، أن الكلامَ مفتقرٌ إليها ، وقد مضى من تلك الفواصل الكثيرُ الذى يُثبتُ ذلكِ .

٤٤ – إلا أننا نلاحظُ أن الفاصلة [عزيزٌ حكيمٌ] تدل بوضعها اللغوى على الشدة والقوة ، مع مزيد الحكمة فى استخدامها ، كما جاء ذلك فى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : إذْ دَعا الله ، فقال :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[البقرة ١٢٩]

فلما كان بَعْثُ الرسولِ تَوْليةً ، والتوليةُ لا تكون إلا من عزيزٍ غالبٍ على ما يريد ، وتعليم الرسولِ الحكمة لابُدَّ أنْ يكون مستندا إلى حِكْمةِ مرسلِه ، . فلابُدَّ أن يكون حكيما ، ولهذا كانت الفاصلة :

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾

مُمكِّنةً لمعنى الآية ، ومناسبةً لها .

٤٥ – كما أن الفاصلة « غفورٌ رحيم » تُنْبِىءُ عن الصفحِ والغفرانِ ، كما فى قوله تعالى فى الموصى إذا رجع عن ظلمه فى الوصية لأحد الورثة :

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[البقرة ١٨٢]

فالمعنى أن من حضر الموصِى ، ورأى منه عُدُولا عن حق الورثة فى وصيته ، فوعَظَه ، وأصلح بينه وبينهم ، حتى يَرْضَوْا ، فلا إثم على الموصِى ، والله يغفر له ويرحمه ، إذا رجع عما هَمَّ عليه من الظلم ، وعلى هذا، فالفاصلة متممة لمعنى الآية ، ومؤكدة للغرض المقصود منها .

وهكذا نرى أن الفاصلة « العزيزُ الحكيمُ » و« الغفورُ الرحيمُ » فى كلٍّ

من الآيتين ، قارَّةٌ فى قرارها ، مطمئنةٌ فى موضعها ، غيرُ نافرةٍ ولا قَلِقَةٍ ، متعلقا معناها بمعنى الكلام الذى قبلها تعلقا تاما ، بحيث لو طُرحت لاختل المعنى ، وفسَدَ الغرض المراد .

٤٦ – لكننا حينما نقرأ هذه الفاصلة نفسها فى بعض الآيات ، نجدُها فى ائتلافها مع ما قبلها – مع بقائها على هذا الوضع – تحتاجُ إلى تدقيق فى التفكير ، وإلى بحثٍ ونظر ، ومثلُ ذلك قوله تعالى حكاية عن عيسى – عليه السلام – مقالته فى قومه حينما ادَّعَوْا عليه أنه قال لهم :

﴿ أَتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة ١١٦]

فقال عيسى – عليه السلام :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
[المائدة ١١٨]

فإن قوله : « وإن تغفرْ لهم » يوهم أن الفاصلة « الغفورُ الرحيمُ » ، وقد نقُلِ هذا عن مصحفِ أُبَىٍّ – رضى الله عنه – وبها قرأ ابنُ شَنَّبُوز .

ولكنْ إذا أُنعمِ النظرُ ، ودقق فى الكلام ، علم أنه يَجبُ أن تكون الفاصلةُ على ما عليه التلاوة ، لأنه لا يَغْفِرُ لمن يستحقُّ العذابَ ، إلاَّ من ليْس فوقه أحَد يَرُدُّ عليه حُكْمَه ، فهو العزيز ، لأن العزيز فى صفات الله : هو الغالب ، ووجب أن يُوصف بالحكيم ، لأن الحكيم : من يضع الشىء فى محَله ، والله تعالى كذلك . إلا أنه قد يَخْفَى وجه الحكمة فى بعض أفعاله ، فيتوهم الضعفاءُ أنه خارجٌ عن الحكمة ، فكان فى الوصف بـ [الحكيم] احتراس حسن ، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب ،

فلا معترض عليك لأحدٍ فى ذلك ، والحكمة فيما فعلته[1] .

نعم ، إذا أنعمت النظر وجدت أن الذى استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلى السلطات ، وقوته أعظم القوى ، وعزته فوق كل عزة ، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفا بالحكمة التى يساندها العقل والمنطق السليم ، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهور .

وإذا جاءت الفاصلة بالعزة مقترنة بالحكمة ، فلأن القادر على العقاب عزيز دائما ، وليس كل عزيز عادلا ، فكم من ملوك وحكام ورؤساء ، ومن بيدهم سلطان على الناس فى هذه الدنيا ، ملكوا العزة ، إلا أنهم فقدوا الحكمة التى يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم .

أفلا نجد عندئذ أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع ، وتصوير جامع ، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم ؟ .

ونظير هذه الآية تلك الآيات الثلاث ، قوله تعالى :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة ٧١]

وقوله تعالى حكاية لقول ابراهيم – عليه السلام – فى دعائه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[الممتحنة ٥]

(١) البرهان جـ ٨٩/١ ، الإتقان جـ ١٠٣/٢ .

وقوله تعالى حكاية قول الملائكة لمن تاب واتبع السبيل المستقيم :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [غافر ٨]

فقد ختمت هذه الآيات الثلاث بالفاصلة [العزيزالحكيم] مع أن ما قبل الآيات كلها يوحى بأن الفاصلة ينبغى أن تكون [الغفور الرحيم] .

لكن بعد إنعام النظر ، والتأمل فى المعنى المراد ، والغرض المقصود من الآية ، وهو أنه لايقدر على فعل ما قبل الفاصلة إلا من يتمتع بكامل العزة ، وعظيم القدرة ، البالغ فى استعمالها أقصى الحكمة — فلما كان المرادُ هذا المعنى ، كانت الفاصلةُ « العزيزُ الحكيمُ » هى المناسِبةُ للختام ، واللائقةُ للمقام ، ولهذا خُتِمت بها .

* * *

٥٠ — ويشرع الله تعالى حُكمَ اللعان — وهو أن يرمىَ الرجلُ امرأتهَ بالزنا — ويبينَ طريقةَ المُلاَعنة بين الزوجين ، فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ﴾

ثم يختم هذا الحكم بهذه الفاصلة :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

[النور ٦ – ١٠]

فالذى يظهر فى أول النظر أنَّ الفاصلة [توابٌ حكيمٌ] لا تتناسب مع لفظ [التوبة] قبلها ، والذى يليقُ هو [توابٌ رحيمٌ] إذ الرحمةُ هى التى تتفق مع التوبة ، وخصوصا من هذا الذنب العظيم .

لكن عند الإمعان فى النظر ، والتدقيق فى البحث ، نجدُ أنَّ الفاصلة [توابٌ حكيمٌ] هى ما تناسب المعنى الدقيق المراد ، وهو : التنبيه على فائدةِ مشروعيةِ اللِّعَان[1] بهذه الصورة الدقيقة ، والمبالغة فى سَتْر هذه الفاحشة العظيمة بما شرع الله من حُكْم اللعان ، ولهذا كان [تواب حكيم] فى هذا المقام أنسبُ من [توابٌ رحيم] .

٥١ – يُدَلِّل الله تعالى على مزيد قدرته ، وعظيم فضله ، فيقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٩]

ويُخبر بأنه تعالى يعلم السر والنجوى حتى ما استَكَنَّ فى داخل الصدور ، فيقول :

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[آل عمران ٢٩]

---

(١) البرهان جـ ٩١/١ .

فلماذا خُتمت كلٌّ آيةٍ بما خُتمت به ، فكانت فى آية البقرة الفاصلة [وهو بكل شىء عليم] ، وكانت فى آية آل عمران الفاصلة [والله على كل شىء قدير] ؟ مع أن المتبادر إلى الذهن أن تُختَم آيةُ البقرة بالقدرة ، وآية آلِ عمران ، تختم بالعلم ، حيث إن سياق كلٍّ من الآيتين يدلُّ على ذلك .

السبب فى ذلك[1] : أننا إذا تأملنا كلاًّ من الآيتين ، ودققنا فى النظر ، وجدنا أنه يجب أن تكون الآيتان على ما عليه التلاوة فى المصحف .

وذلك أن آية البقرة لما تضمنت الإخبارَ عن خلق الأرض وما فيها ، على حَسَبِ حالات أهلها ، ومنافِعهم ، ومصالحهم ، وخَلَق السمواتِ خلقا مستويا محكماً من غير تفاوت ، والخالقُ على هذا الوصف المذكور يجب أن يكون عالِما بما فَعَله كليا وجزئيا ، مُجملا ومفصَّلا ، لذلك ناسب ختم هذه الآية بصفة العلم ، فقال تعالى :

﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾

أما آيةُ آلِ عمران : فلما كانت فى سياق الوعيد على موالاة الكفار ، وأنه يعلم سِرّهم ونجواهم ، ناسب ختمها بصفة القدرة ، فقال تعالى :

﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير ﴾

* * *

(1) الإتقان جـ ١٠٣/٢ .

٥٢ - ويعلن الله تعالى عفوه ، وصفحه ، عما سبق إليه اللسان من الحَلِف من غير قصد ، نحو ، لا والله ، بلى والله ، فيخبر بأن من فَعَل ذلك لا إثم عليه ، ولا كفارة ، وإنما المؤاخذةُ على قصد الأيمان والحِنْثِ فيها ، فيقول : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٢٥]

فالفاصلة لهذه الآية [والله غفور حليم] بينها وبين ما قبلها مناسبة قوية ، حيث إن بين الغفران للذنب ، والحلم على الحانث ، بعدم المؤاخذة عن اللغو فى الأَيْمان ، صلة قوية ، ورابطة واضحة ، ولهذا جاءت الفاصلةُ غيرَ نابيةٍ ، ولا قلقةٍ ، بل هى مما يُرشد إليها السياق ، ويسوقُ إليها المعنى فى الكلام .

وعندما نقرأ هذه الفاصلة بعينها فى قوله تعالى ينزه نفسه عن الولد والشريك ، ويَعُدُّ ذلك من الكفار قولا عظيما ، ويدلِّل على عظمته فى الوجود ، وقدرته على كل ما هو موجود ، فيقول : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء ٤٤]

فأول النظر يُرى أنِ ختم الآية بـ [الحلم والغفران) عقب تسابيح الأشياء غيرُ ظاهر ؛ لكنْ لما كان كلُّ شىء فى السموَات والأرض يسبح بحمد الله ، ويدُلُّ عليه ، كان من الغفلة التى تستحقُّ العقوبة ، ألَّا نفقه دِلالة هذه المخلوقات على خالقها ومنشئها ، لذلك كان من المناسب أن تختم الآية بوصفه بـ [الحلم والغفران] حين لم يعاجل هؤلاء الغافلين بالعقوبة .

* * *

وبعد :

فهذه الفواصل – كما رأينا – لها قيمتها فى إتمام المعنى ، وتوضيحُ الصورة ، وهى مرتبطة تماما بآياتها ، ولها أثُرها البالغ قدره فى نظام الكلام ، وأهميتُها العظمى فى نفسية السامع .

كما أن هذه الفاصلة من آياتها تكمل من معنى الآية ، ويُتمُّ بها تحسين النطق ، إذ تراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم وحروف المد ، وهذا مما يلزمه مد الصوت ، وتحسينُه .

وتأتى الفاصلة مُمَكَّنةً فى مكانها ، مستقرةً فى موضعها ، غيرَ نافرةٍ ، ولا قلقةٍ ، يتعلق معناها بمعنى ما قبلها ، بحيث لو طرحت من الآية ، لاختل المعنى ، وفسَد الغرض ، وقد يَشتدُّ تمكنُ الفاصلِة فى مكانها حتى لتوحى بها الآيةُ قبل نُطقِها ، وهذا ما أيدته الشواهدُ العديدة ، ونطقت به الآياتُ الكريمة ، وصدق الله العظيم » .

«كتبٌ أحكمتْ آياتُه ، ثم فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبير»
[هود ١]

المراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا :

إعجاز القرآن — للباقلانى تحقيق سيد صقر – القاهرة ١٩٧١

الإتقان فى علوم القرآن — للسيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل ، والنسخة القديمة ط التجارية – القاهرة ١٩٧٠هـ

الأمالى — للشريف المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل – بيروت ١٩٦٧

أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام — د/على الجندى وآخرين – القاهرة ١٩٦٠ م

ألحان الأصيل — د/على الجندى – القاهرة

البرهان فى علوم القرآن — للزركشى، تحقيق محمد أبو الفضل – القاهرة ١٣٧٧هـ

البديع فى ضوء أساليب القرآن — د/عبد الفتاح لاشين ط – دار المعارف – القاهرة ١٩٧٩م

البحر المحيط — لأبى حيان – الرياض – مطابع النصر – بدون

بدائع الفوائد — لابن القيم الجوزية – بيروت – بدون

بديع القرآن — لابن أبى الإصبع، تحقيق د/حنفى شرف – القاهرة – بدون

تاريخ النقد الأدبى عند العرب — طه إبراهيم – بيروت – بدون

تحرير التحبير — لابن أبى الإصبع، تحقيق د/حنفى

تفسير القرآن الكريم — للشيخ محمود شلتوت – القاهرة ١٩٧٤م

بصائر ذوى التمييز فى طائف الكتاب العزيز — للفيروزابادى – تحقيق محمد على النجار – القاهرة ١٣٨٧هـ

تفسير الجليلين — للسيوطى – القاهرة – بدون

الجواهر فى تفسير القرآن — للشيخ طنطاوى جوهرى – القاهرة ١٣٥٠هـ

الجامع الكبير — لابن الأثير، تحقيق د/جميل سعيد بغداد ١٣٧٥هـ

الخصائص — لابن جني، تحقيق محمد على النجار — بيروت — بدون
درة التنزيل وغرة التأويل — للإسكافى — بيروت ١٣٩٣هـ
دراسات فى علم النفس الأدبى — حامد عبد القادر — القاهرة
ديوان بشار — القاهرة — لجنة التأليف والنشر ١٩٦٧م
روح المعانى — للألوسى — بيروت — بدون
سر الفصاحة — لابن سنان الخفاجى — تحقيق الشيخ عبد المتعال الصعيدى — القاهرة ١٣٨٩هـ
شرح القصائد السبع — للأنبارى — تحقيق عبد السلام هارون — القاهرة ١٩٦٩م
الصناعتين — لأبى هلال العسكرى ط — استانبول ١٩٢٠هـ
عروس الأفراح — للبهاء السبكى ضمن شروح التلخيص — القاهرة ١٩٤٢م
على مائدة الفكر الإسلامى — للشيخ محمد متولى الشعراوى — بيروت ١٩٨٠م
فى ظلال القرآن — سيد قطب — بيروت — بدون
فلسفة البلاغة — جبر ضومط
فن الأسجاع — د/على الجندى — القاهرة — ١٩٥١م
القرطين — لابن مطرف الكنانى ط الخانجى — القاهرة ١٣٥٥هـ
الكتاب — لسيبويه — القاهرة المطبعة الأميرية ١٣١٦هـ
الكشاف — للزمخشرى — القاهرة ١٩٧٢م
المثل السائر — لابن الأثير، تحقيق د الحوفى، د طبانة — القاهرة ١٣٧٩هـ
المزهر — للسيوطى، تحقيق البجاوى وآخرين — القاهرة
مفتاح العلوم — للسكاكى — القاهرة ١٩٣٧م
معترك الأقران فى إعجاز القرآن — للسيوطى تحقيق البجاوى — القاهرة ١٩٦٩م
المحكم — لابن سيده — بيروت — بدون
من روائع القرآن — د/سعيد رمضان البويطى، حلب ١٩٧٢م
النكت فى إعجاز القرآن — للرمانى — ضمن ثلاث رسائل للإعجاز، تحقيق د/محمد خلف الله وآخرين — القاهرة ١٩٦٨م
نقد الشعر — لقدامة بن جعفر — تحقيق د/محمد عبد المنعم خفاجى القاهرة ١٤٠٠هـ



كتب للمؤلف

١ – بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار

طبع ونشر (دار الفكر العربى) – القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

٢ – المعانى فى ضوء أساليب القرآن

طبع ونشر (دار المعارف) – القاهرة ط ثالثه ١٩٧٨ م .

٣ – البيان فى ضوء أساليب القرآن

طبع ونشر (دار المعارف) – القاهرة سنة ١٩٧٧ – القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

٤ – المعانى فى ضوء أساليب القرآن

طبع ونشر (دار المعارف) – القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٥ – البهاء السبكى وآراؤه البلاغية والنقدية

نشر – دار الفكر العربى – القاهرة سنة ١٩٧٨ .

٦ – التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر

طبع ونشر (دار المريخ) الرياض سنة ١٩٨٠ م .

٧ – من بلاغة الحديث الشريف

طبع ونشر (دار عكاظ) الرياض سنة ١٩٨٢ م .

٨ – الخصومات البلاغية والنقدية فى صنعة أبى تمام

طبع ونشر (دار المعارف) – القاهرة سنة ١٩٨٢

٩ – من أسرار التعبير فى القرآن – الفواصل القرآنية –

طبع ونشر (دار المريخ) القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

تحت الطبع

من أسرار التعبير فى القرآن – اختيار الحروف (دار عكاظ)

من أسرار التعبير فى القرآن – صفاء الكلمة (دار المريخ) .

من أسرار التعبير فى القرآن – بناء التراكيب (دار المريخ) .

ابن القيم وحسه البلاغى فى تفسير القرآن (دار الرائد العربى) بيروت .

٨٢/٣٩٨٨

مطبعة نهضة مصر

